

محمد الزواري

المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط

جدلية المحلي والوفاة



تقديم الأستاذ الدكتور محمد حسن



محمد الزواري

المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط جدلية المحلي والوفاة

محمد الزواري باحث في الآثار والتاريخ والتراث متخصص في الانثراكولوجيا الخاصة بجنوب شرق أفريقية في العصر الوسيط، متحصل على الدكتوراه في الآثار والتاريخ الإسلامي سنة 2017 تحت عنوان: التعمير والعمران بجبل نفوسة خلال العصر الوسيط، وشهادة الدراسات المعمقة تحت عنوان: القصور والقلاع بجبل دمر خلال العصر الوسيط. يُدرّس بجامعة قابس منذ 2017.



«برز جبل جديد من الباحثين المغاربة، من تونس وليبيا والجزائر خصوصا، الذين أولوا عناية بالمجالات الإباضية وخصوصا بجبل نفوسة وعقدت الندوات العديدة حول تاريخ الإباضية في أماكن مختلفة من العالم. وإذا لا يسمح المجال لمزيد التفصيل، فإن الأستاذ محمد الزواري المنتمي إلى هذا الجيل، تميّز بالاهتمام في مرحلة أولى بآثار جبل نفوسة، فأنجز أطروحة دكتوراه حول هذا الموضوع، ثم التفت إلى جوانب أخرى من تاريخه الاجتماعي وهو ما يمثل محتوى هذا الكتاب، مسهما بذلك في مدّ جسور التاريخ والجغرافيا بين البلدين الشقيقين: تونس وليبيا.

أتبع مقارنة حديثة في دراسة المجتمعات، فدرس تحولات نفوسة من القبيلة إلى الشعب ومن نمط العيش المرتحل إلى المستقر واعتنى بالتحولات الاقتصادية، ورصد الانتقال من نظام الإنتاج العبودي إلى ما يشبه نظام الإنتاج الإقطاعي. ورغم تشعب هذه المواضيع ودقتها، لم يهمل خصائص الثقافة التي طبعت حياة النفوسيين وأثرت تأثيرا عميقا في وجدانهم، نظرا إلى تنوع روافد هذه الثقافة التي تنهل من الرافد البربري المحلي، الوثني والمسيحي وكذلك من الرافد العربي الإسلامي، الوافد على بلاد المغرب منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي».

أ.د. محمد حسن

أستاذ متميز بالجامعة التونسية.



الطبعة 25 دمت

Dépôt légal : XX37596VCX

منشورات

المجتمع النفوسي
خلال العصر الوسيط
جدلية المحلي والوافد

محمد الزواري

المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط جدلية المحلي والوافد

تقديم الأستاذ الدكتور محمد حسن



عنوان الكتاب	المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط جدلية المحلي والوافد
المؤلف	محمد الزواري
الطبعة الأولى	تونس 2024
ر.د.م.ك	978-9938-9711-3-2
المدير التنفيذي	عزيز شراج

منشورات ● bode

1 نهج الأديب محمود الشبعان حميم - المرقية - منوبة

الهاتف : 79408851 - 22990183

Almokadima.edition@gmail.com

«نجد أحيانا بهذا الجبل شبه الصحراوي
تقريبا حياة ونشاطا غير قابلين للفهم للوهلة
الأولى وتتساءل كيف يمكن لهؤلاء الناس
العيش وكيف يمكن لأرض بهذا الجفاف
وهضاب وأودية بهذه الفظاظة أن تمتد كل
هؤلاء القرويين بالغذاء»

جون دي بوا

تقديم

يعدّ البحث في المجالات المحليّة، وخصوصا الجبلية منها، ضربا من ضروب المغامرة المحفوفة بالمخاطر نظرا إلى ضرورة الاطلاع عن كثب على خصائص هذه المجتمعات وإلى التخلّص من الأحكام المسبقة التي ملأت كتب الرحالة والدراسات الحديثة، مرسية توجّها يعمل على تهميش هذه المناطق ووصمها بقوالب جاهزة. لذلك، يجد الدارس عناء في التخلّص من هذه القيود التي تكبل خطاه البحثية.

ظلّ جبل نفوسة مجالا يسترعي اهتمام الباحثين العرب والمستعربين منذ أكثر من قرن، إذ حظيت جغرافيته وتاريخه ولغته بمؤلفات ودراسات عديدة منذ الحقبة الاستعمارية . وإن كنت أنسى فلن أنسى أنّ أوّل مقال نشرته منذ أربعة عقود في مجلة كلية الآداب بالرباط قادني إلى ربوع قبيلة نفوسة، مجالها ودورها السياسي. لكنّ وتيرة الدراسات ظلّت بطيئة حول هذا الموضوع، إلى أن وقع نفّض الغبار عن المخطوطات القديمة، وحققت المصادر المتعلقة بالجبل، ونُشرت للعوام، ونخصّ بالذكر منها سير البغطوري وكتاب السيرة لأبي زكريا الوردجاني وسير الوسياني وطبقات الدرجيني وسير الشماخي، الذي تولّينا تحقيقه ونشره سنة 2009.

وابتداء من هذه الحقبة، ازداد اهتمام المستعربين بالمسألة، مثلما برز جيل جديد من الباحثين المغاربة، من تونس وليبيا والجزائر خصوصا، الذين أولوا عناية بالمجالات الإباضية، وخصوصا بجبل نفوسة، و عقدت الندوات العديدة حول تاريخ الإباضية في أماكن

مختلفة من العالم. وإذا لا يسمح المجال لمزيد التفصيل، فإنّ الأستاذ محمد الزواري المنتمي إلى هذا الجيل، تميّز بالاهتمام في مرحلة أولى بآثار جبل نفوسة، فأنجز أطروحة دكتورا حول هذا الموضوع، ثمّ التفت إلى جوانب أخرى من تاريخه الاجتماعي، وهو ما يمثل محتوى هذا الكتاب، مسهما بذلك في مدّ جسور التاريخ والجغرافيا بين البلدين الشقيقين: تونس وليبيا.

أتبع مقارنة حديثة في دراسة المجتمعات، فدرس تحولات نفوسة من القبيلة إلى الشعب ومن نمط العيش المرتحل إلى المستقرّ، واعتنى بالتحوّلات الاقتصادية، ورصد الانتقال من نظام الإنتاج العبودي إلى ما يشبه نظام الإنتاج الإقطاعي. ورغم تشعّب هذه المواضيع ودقّتها، لم يهمل خصائص الثقافة التي طبعت حياة النفوسيين وأثّرت تأثيرا عميقا في وجدانهم، نظرا إلى تنوّع روافد هذه الثقافة التي تنهل من الرافد البربري المحلي، الوثني و المسيحي، وكذلك من الرافد العربي الإسلامي، الوافد على بلاد المغرب منذ القرن الأوّل الهجري / السابع الميلادي.

تناول مختلف هذه الموضوعات بالاستناد إلى ما جادت به المكتبة الإباضية من مصنّفات متنوّعة، لم تكشف كلّها عن خباياها وعن دررها المكنونة. واعتمادا على مؤلّفات ذات صبغة إخبارية وفقهيّة، وعلى كتب السير التي مثّلت مرآة عاكسة لحياة الناس في مختلف أحوالهم، وعلى الشواهد الأثريّة المتبقية بقرى الجبل وقصوره وقلاعه، سعى إلى تشريح المجتمع النفوسي وتحليله، متخلّصا إلى طرح السؤال العسير حول طبيعة المنظومة الاقتصاديّة لهذا المجتمع. ولم ينس في كلّ هذا مكانة المرأة النفوسية في نحت هذه الثقافة المميّزة في محافظتها على الإرث القديم واستيعابها للثقافة العربيّة - الإسلامية الوافدة.

وهكذا عمل الباحث على استثمار التراكم المعرفي الحاصل حول تاريخ الجبل وآثاره، وذلك في سبيل كتابة نصّ جديد في مقاربتة وطرحه للقضايا، طريف في المعطيات الواردة فيه، التي أفصح عنها بمنهج علمي رصين، تشدّ القارئ إليه.

محمد حسن

أستاذ متميّز بجامعة تونس

المقدمة

تتسم التحولات الاقتصادية والاجتماعية بالبطء نظرا لانتمائها إلى التاريخ المتوسط حسب تعبير فيرناند بروديل: «في الوسط يطالعا تاريخ ظروف ذات حدود زمنية أوسع ووتيرة أبطأ، أي تاريخ سردي يبحث عن دورات اقتصادية واجتماعية متفاوتة السرعة»⁽¹⁾. وتلعب البنى (التاريخ الطبيعي) التي تمثل التاريخ الطويل وكذلك الظرفية المرتبطة بالتاريخ الكرونولوجي أو القصير دورا مهما في حصول تحولات اقتصادية واجتماعية.

ولئن كان تحديد المجال الجغرافي لجبل نفوسة عملية صعبة بفعل المدّ والجزر وتداخل العوامل السياسية والاجتماعية، فإن رسم الحدود الثقافية يعدّ عملية يائسة بفعل تشابك عواملها وتواشج مؤثراتها المادية والروحية والرمزية المتنوعة عبر حقبة طويلة من الزمان، ذلك أن الممارسات والاعتقادات تعثرها تغيرات بطيئة ولا يمكن ملاحظة هذه التغيرات إلا بعد زمن طويل من بداية تدخل العوامل الجديدة المؤثرة⁽²⁾.

كما أن أي مجتمع هو بمثابة عقدة ضمن شبكة معقدة من العلاقات والتفاعلات، بينما تقوم الدراسات الانثروبولوجية المرتكزة على علم العمران البشري بما هو مفهوم وسيطي وعلم الاجتماع بما هو مفهوم

(1) بروديل (فيرناند)، المتوسط العالم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمرا، ط 1، دار المنتخب العربي، بيروت 1993، ص 22.

(2) Casaneuve (G.), *Sociologie du rite*, Paris PUF 1971, 14 - 15

حديث بعزل الظاهرة عن محيطها لفهمها وإدراكها ومعرفة القوانين التي تضبط حركتها من الماضي إلى المستقبل تحت قاعدة أنّ كل ظاهرة محكومة في حركتها من الماضي إلى المستقبل بقوانين نوعية خاصة ومعروفة أو يمكن معرفتها وأنه ليس كل ما لا نعرف قانون حركته تكون حركته غير خاضعة لقانون، هذا ما نروم معرفته من خلال دراستنا للمجتمع النفسي وظاهرة القبيلة التي تتحول اجتماعيا من القبيلة إلى الشعب وتتحول ثقافيا من الانتماء البربري الوثني المسيحي إلى الانتماء العربي الاسلامي وتتحول اقتصاديا من الاقتصاد الرعوي المرتحل إلى الانتاج الزراعي والحرفي المستقر، أي إعادة الظاهرة إلى الوسط الذي تعيش فيه وتتفاعل معه بعد دراستها منعزلة عن محيطها.

اعتنت الدراسات في السنوات الأخيرة بالمجالات التي كانت تعد هامشية طبقا للمدرسة التاريخية الوضعية التي أسست البحث التاريخي على فكرة «المركزية» وهي من الأسس الحداثيّة وعلى هذا المنوال بنت المدرسة الانقسامية نظريتها فكانت الدراسات تقوم أساسا على المركز في مقابل الهامش وهكذا تم الاحتفاء بالمركز وتهميش الهامش فالمركز هو المدينة والهامش هو الريف والبداءة والمركز هو الدولة والهامش هو القبائل النابذة، فبقيت هذه المجالات مجهولة المعالم ولا تكاد تذكر إلا عبورا في معرض الحديث عن المركز وعلاقاته المتشابكة.

المجتمع النفسي والنظرية الخلدونية:

يربط ابن خلدون كما في العلوم الطبيعية بين المادة والصورة ربطا تحميا فمادة العمران هي الاجتماع البشري وصورته هي الدولة، حيث يقول: «إن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل

الحافظ لنوعه بوجودها وتقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن إنفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون عمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر»⁽¹⁾، وكذلك يطول عمر الدول أو يقصر تبعا لقوة العصبية وطول عنفوانها، حيث يقول ابن خلدون: «لأن عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدولة إنما هو العصبية فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وكان أمد العمر طويلا»⁽²⁾.

وترى الباحثة الروسية سفيتلانا باتسيفا Svetlana Batsieva أن الترجمة الحرفية لمصطلح «العمران» الخلدوني هي «الحياة الاجتماعية» إذ تقول: «الترجمة الحرفية للاصطلاح هي الحياة الاجتماعية، وهي في رأينا أكثر مطابقة لمفهوم العمران عند ابن خلدون»، ويعدّ هذا التعريف أقرب معنى للعمران الخلدوني ومنه نطلق وننتهي في معرفة الحياة الاجتماعية لجبل نفوسة في أبعادها المختلفة.

يصرح ابن خلدون بأنه وضع للناس علما جديدا مستقلا بذاته عن بقية العلوم، حيث يقول: «هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذات واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا»⁽³⁾.

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص 883. ورد في، الجابري (محمد عابد)، العصبية والدولة، ص 109.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر، ج2، ص 475. ورد في، الجابري (محمد عابد)، العصبية والدولة، ص 109.

(3) باتسيفا (سفيتلانا)، العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمه عن اللغة الروسية رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا 1980، ص 188. ابن خلدون، كتاب المقدمة، ص 70

إتبع ابن خلدون المنهج الاستقرائي التاريخي وذلك برصد الظواهر الاجتماعية في فترات متعاقبة زمنيا فعرضها الأقدم فالأقدم فبدأ بالبداوة وبساطتها ووصل إلى المدينة وتعقيداتها ثم أخذ في استنباط سننها من السهل إلى المركب.

لقد وضع ابن خلدون أسس علم الاجتماع كما هو عند دوركايم وكذلك اللبنة الأولى للأنثروبولوجيا وعديد العلوم وثيقة الصلة بالإنسان في أحواله المختلفة.

يعدّ مفهوم العصبية - كما هو لدى ابن خلدون - مناط قيام الدول وسقوطها، فلا يمكن أن يقوم أمر ديني أو دنيوي على غير عصبية، يقول ابن خلدون في المقدمة: «وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة، فلا بد له من العصبية. وفي الحديث الصحيح كما مرّ: ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه. وإذا كان هذا في الأنبياء - وهم أولى الناس بخرق العوائد - فما ظنك بغيرهم ألا تخرق لهم العادة في الغلب بغير عصبية»⁽¹⁾.

يعرّف محمد عابد الجابري العصبية بالمفهوم الخلدوني بأنها «رابطة اجتماعية - سيكولوجية، شعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة»⁽²⁾.

يبدو أن أساس العصبية هو المصلحة المشتركة أو كما يسميها ابن خلدون «المساهمة والمشاركة»، والمقصود هنا هو المساهمة في السلطة السياسية والمشاركة في الثروات الناجمة عن الغنائم،

(1) ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس 1993، ص 208.

(2) الجابري، (محمد عابد)، فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، الدار البيضاء، 1982، ص 254.

وإذا أردنا ترجمة هذه المفاهيم الوسيطة إلى مفاهيم معاصرة فإننا سنجد أنفسنا نتحدث عن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتضامن العضوي بالمفهوم السوسيولوجي، وهذا الأمر ربما هو الذي دفع عدد من الباحثين إلى إعطاء ثورات بلاد المغرب بعدا اجتماعيا⁽¹⁾ ويعد ذلك أساسيا في تطور العصبية وصولا إلى الملك ويرتبط ذلك بنضج الظروف الموضوعية المتمثلة في غياب الأمن والتفكك السياسي وضعف السلطة المركزية وتنازع أمرائها على الحكم ووجود الدعوة الدينية وهي الايديولوجيا التي يتم بواسطتها استقطاب القبائل وهي المذهب الأباضي في حالة نفوسة الذي يجد هوى لدى البربر أمام ما عانوه من تعدّ وظلم من بعض ولالة الدولة الأموية مثل عبيد الله بن الحبحاب ولما وجدوه في المذهب الأباضي خاصة والخارجي عامة من عدل سياسي والذي يعبر عنه شعارهم المركزي «لا حكم إلا لله» وهي لعمرى ليست دائما «كلمة حق أريد بها باطل»، فالتجارب السياسية للخوارج في بلاد المغرب كثيرا ما قدمت غير العرب على رأس السلطة السياسية لذلك يعرف الخوارج بـ«ديمقراطيي الإسلام»⁽²⁾.

تقوم نظرية ابن خلدون في العصبية على ثلاث مراحل أساسية:

- المرحلة الأولى: مرحلة الوصول إلى الحكم أو طور القوة، وتكون العلاقات في هذه المرحلة قائمة على أساس «الديمقراطية

(1) عبد الرازق (محمود اسماعيل)، «التفسير الاجتماعي لثورة المغاربة في القرن الثاني الهجري»، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، الجزء الأول، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1979، ص 133-163.

(2) Nabhani Koribaa, Les Kharidjites democrats de l'Islam, Publisud, Paris 1991.

القبيلية» المرتكزة على مبدأ «المساهمة والمشاركة» حيث يتفوق «الأنا العنصري» على «الأنا الفردي» حسب عبارات الجابري بمعنى تتفوق المصلحة الجماعية على الأهواء والنوازع الفردية و«الرئيس معهم وفوقهم في آن واحد هو معهم من حيث أن العنصرية ككل تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات وفوقهم لأنه يحظى بتقديرهم واحترامهم»⁽¹⁾.

- المرحلة الثانية: مرحلة نشوء الأرستقراطية الدينية عبر كسب الخيرات الدنيوية عبر بحثها عن الحافز الاقتصادي وهو ما يؤدي إلى تقسيم جديد للسلطة وللثروة فتغيب تدريجيا مبادئ «المساهمة والمشاركة» كأساس للعنصرية القبلية، ويقول الجابري أن المجتمعات القبلية «تفتح صدرها لنشوء الأرستقراطية القبلية»⁽²⁾.

- المرحلة الثالثة: طور الهرم والإضمحلال الذي يتميز بأزمة اقتصادية وصراع على السلطة وحروب أهلية مما يجعل بسقوط الدولة أو الإمارة⁽³⁾.

تقوم العنصرية بإنشاء اتحاد قبلي وأهم شروطه وجود قبائل من أصل مشترك حقيقي أو مزعوم، في مجال متصل ترابيا، ثم يتوسع الاتحاد من القبيلة النواة وهي عادة الأقوى والأكثر عددا ويتم التوسع طوعا أو كرها، وضرورة أن تكون الرئاسة ضعيفة في سلطتها وتكون مفردة أو مزدوجة ويقوم مجلس الاتحاد على المشايخ الممثلين لعشائرتهم

(1) الجابري، (محمد عابد)، فكر ابن خلدون: العنصرية والدولة، الدار البيضاء، 1982، ص 276.

(2) الجابري، (محمد عابد)، نفسه، ص 188.

(3) بن حسن، محمد، القبائل والأرياف المغربية، ص 13 و 14.

وقبائلهم والمتساوين في المنزلة والسلطة وتأخذ القرارات بالإجماع مع غياب المؤسسات كالإدارة والجيش والشرطة والسجن.

يتطور التحالف القبلي من مجموعة قبائل وعشائر إلى شعب وهو تحديدا ما حصل مع نفوسة التي انتقلت من قبيل بربري إلى تحالف قبلي وصولا إلى شعب نفوسة الذي أعطى إسمه إلى الجبل الممتد من دمر إلى غريان جنوب طرابلس.

عرف جبل نفوسة الاتحاد القبلي مبكرا منذ العهد الروماني، عند النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي إبان ثورتي فيرموس وجلدون الذين قادا المقاومة الدينية الدوناتية التي أخذت طابعا قبليا في شكل اتحاد قبلي⁽¹⁾.

أما في العهد البيزنطي فتذكر المصادر الرومانية قائدا أمازيغيا يدعى كاباون ربما نسبة إلى قرية كاباوبجبل نفوسة أو نسبة إلى كبا وهو فصيل قبلي من هوارة، جمع حوله الأمازيغ وقاتل إلى جانب البيزنطيين عند تصديهم للوندال.

يبدو أن هذا التحالف القبلي لم تنفصم عراه عند قدوم عمرو بن العاص معززا بجيش كبير فلم تذكر المصادر قتالا بين نفوسة والفاطحين، بل تجمع على أن الجبل فتح سلما سنة 23 هـ/ 644 م عكس المواجهة الشرسة التي عرفها عمرو بن العاص طيلة مسيرة الفتح ببلاد المغرب وهذا الأمر ربما يفسر ببحث سكان الجبل من شبه المستقرين على الأمن خاصة وأنهم تضرروا كثيرا من انعدامه أو آخر العهد الروماني والعهد البيزنطي.

(1) بن حسن (محمد)، القبائل والأرياف المغربية، ص 16-19.

تؤكد هذا التحالف القبلي في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة في أواخر عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين مع قيام إمارة الحارث وعبد الجبار في طرابلس، ثم عند قيام إمارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري والتي دامت أربع سنوات ويبدو من خلال تكرار تجارب التحالف القبلي سعي هذه القبائل بلوغ مصاف الشعوب على المستوى الاجتماعي ومصاف الدول على المستوى السياسي وهي في ذلك تنهل من تجارب قديمة مرت بها القبائل البربرية عندما شكلت دولا وممالك دامت لعهد طويل مثل مملكة ماسينيسا ومملكة سيفاكس.

أثمرت هذه المحاولات منتصف القرن 2هـ / القرن 8م قيام الإمارة الرستمية التي مثلت بحق محصلة نصف قرن من محاولات البربر بناء كيان سياسي يقوم هذه المرة على إيديولوجيا المذهب الإباضي الذي يعد أقل المذاهب الخارجية عنفا وقد مثلت نفوسة شوكة الدولة الرستمية فلولا سيوف نفوسة ما قامت وما دامت الدولة الرستمية ولم تنهر إمارة الرستميين إلا عقب الهزيمة النكراء التي كسرت شوكة نفوسة في معركة مانوا سنة 283هـ / 896م، حيث انهار بعد عشر سنوات فقط كامل المجال الرستمي الذي كان يغطي جانبا كبيرا من بلاد المغرب ليفسح المجال لقيام دولة العبيديين ابتداء من سنة 296هـ / 909م.

يمثل القرن 2هـ / القرن 8م مرحلة الوصول إلى الحكم أو طور القوة وفق النظرية الخلدونية وقد بنيت العلاقات في هذه المرحلة على أساس «الديمقراطية القبلية» المرتكزة على مبدأ «المساهمة والمشاركة» وتبدو فيها نفوسة الأكثر نفوذا وتأثيرا في مجرى السياسة الرستمية وفي هذه المرحلة طبقت «الديمقراطية» أو الشورى عند

اختيار عبد الرحمان بن رستم ثم طبقت من خلال المجلس الاستشاري الذي تركه عندما أحس باقتراب الأجل اقتداء بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد اختار هذا المجلس عبد الوهاب بن رستم رغم طول فترة المشاورة ورغم الاختلاف في تفسير شروط المجلس على الحاكم والخلاف الذي دب في الجسم الأباضي بعد ذلك بسبب اختلاف التفسيرات وتضارب الأحلام الفردية ومبدأ الشورى.

مثل النصف الأول من القرن 3هـ / القرن 9م المرحلة الثانية طبقا لنظرية العصبية في الحكم، وهي مرحلة نشوء الأرستقراطية الدينية عبر كسب الخيرات الدنيوية، فقد عرفت هذه المرحلة تزاوجا بين الثروة والسلطة ما أثر تدريجيا على مبدأ الشورى الذي قام عليه التحالف القبلي وقامت على أساسه الدولة الرستمية، فقد ترسخ الحكم الملكي في صلب العائلة الرستمية مع أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، وهو ما نبه منه وعارضه ابن فندين في إبانته وهو سبب الاختلاف الأول لدى الأباضية ببلاد المغرب.

أما النصف الثاني من القرن 3هـ / القرن 9م فقد مثل المرحلة الثالثة والأخيرة من النظرية الخلدونية في قيام الدولة الرستمية وأفولها، فهو طور الهرم والإضمحلال الذي تميز بأزمة اقتصادية وصراع على السلطة وحروب أهلية مما عجل بسقوط الدولة أو الإمارة فقد عرف المجتمع النفوسي خروج خلف بن السمح بجبل نفوسة ثم ابنه الطيب الذي قام في زواغة أميرا عليهم وقد عمل آل خلف على الإستقلال بجبل نفوسة عن تاهرت وهو ما حصل فعلا بعد هزيمة مانوا وقبل سقوط الإمارة.

يفسر كتاب السيرة الأباضيون هزيمة مانوا تارة بخطأ في التقدير من قبل المشايخ وأخرى بسبب غياب الدعم عنهم من طرف الأمير

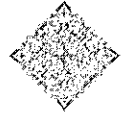
الرستمي وأحيانا بقوة خصمهم، إلا أن هذه العوامل مجتمعة لا تفسر الهزيمة الكبيرة لقبيلة نفوسة المقاتلة، حيث يبدو أثر الإنشقاقات الكثيرة والكبيرة التي دبت في الجسم الأباضي مبكرا حاسما، فقد أنهك المجتمع النفوسي من كثرة الفرق وتناحرها خاصة بين خلف وعبد الحميد الجناوني ثم بين ابن خلف وأبي منصور إلياس وغيرها وكذلك الحروب الأهلية العديدة بين طرميسة وزمور وبين فاساطو وزمور وبين ويغو وشروس وبين هذه الأخيرة وتندميرة... لقد عصفت هذه الحروب بالقوة التي إشتهر بها المجتمع النفوسي وهو ما عجل بسقوط الدولة الرسمية إثر معركة مانوا.

يمكن تطبيق نظرية التطور هذه على المذهب الأباضي حيث يبدو أن تاريخ المذهب هو تاريخ المجتمع النفوسي، إذ يعدّ هذا المجتمع أنموذجا لتطبيق مسالك الدين الأربعة: الظهور والدفاع والشراء والكتمان لدى الأباضية رغم الإنتشار الواسع لهذا المذهب في عدة مناطق خارج جبل نفوسة.

أدى إمتزاج البربر بالإسلام وتحديدًا بالمذهب الأباضي إلى نشأة مجتمع متميز هو المجتمع النفوسي الذي تعددت مكوناته القبلية وإن غلب عليها العنصر البربري وتعددت أبعاده الثقافية بفضل التثاقف الذي حصل بين المحلي والوافد وبفضل موقع الجبل الرابط بين المشرق والمغرب وبين الساحل والصحراء وبين سمات الإستقرار وسمات البداوة.

فماهي الأدوار التاريخية التي لعبها المجتمع النفوسي؟ وماهي أشكال التثاقف التي فرضت نفسها على المجتمع وكيف كان التفاعل بين الوافد والمحلي وأثر ذلك في تشكل المجتمع الأباضي؟

يبحث هذا النص في أشكال العمران وملامح المجتمع النفوسي ودورها في قيام الدولة الرستمية وكذلك في سقوطها متبعين المنهج الاستقرائي التاريخي والأثنوآركيولوجيا القائم على استثمار مخرجات البحث الأثري في تحديد طبيعة المجتمع ومختلف أبعاده.



الفصل الأول

تشابك النسيج المجتمعي



يختصر المجتمع النفوسي في العصر الوسيط تاريخ المذهب الأباضي من خلال التطورات الكبيرة التي عرفها، فقد سعى النفوسيون منذ تبنيهم هذا المذهب إلى تطبيقه وتجذيره في الجبل وحوله، حيث يقوم المذهب الأباضي على مبادئ أساسية تتمثل في فهم خاص للإمامة والحكم والخلافة كما يعرفها ابن خلدون هي: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، فهي في الحقيقة (نيابة) عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»⁽¹⁾.

يعبر الفكر السياسي الأباضي عن السلطة بمفهوم «مسالك الدين» وهي أربعة:

- الكتمان: «ملازمة الأمر سرا بلا إمام» وهو بداية الدعوة وكذلك عندما يكون حال الأباضيين من ضعف إلى وهن كما هو الحال بداية من القرن 5هـ / القرن 11م، حيث يمارس المجتمع التقية وإخفاء المذهب للحفاظ على الوجود.

- الظهور: «تولية إمام عدل يسند إليه الأمور»، يعدّ مسلك الظهور أعظم مسالك الدين لدى الأباضية وغايتهم وترويج بقية المسالك وهو ما يتطلب إقامة إمارة تماما كما حصل مع أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري وهو إمام ظهور «وكانت ولاية أبي

(1) ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس 1993، ص 244.

الخطاب أربع سنين⁽¹⁾ من 140 هـ إلى 144 هـ وكذلك الأمر مع عبد الرحمان بن رستم.

- ولاية الدفاع: «أن يدهم أهل الكتمان بدهامة فيولوا عليهم من يدفع عنهم العدو»⁽²⁾، يعدّ مسلك الدفاع أقل شأنًا من الظهور وهو مبايعة إمام على أن يقود جهود المجتمع الأباضي لدفع خطر داهم كما فعل أبي حاتم الملزوزي بعد سقوط دولة أبي الخطاب بطرابلس والدفاع فرض عين على كل قادر وفي إطار إمامة الدفاع تندرج ثورة أبي خزر ضد الفاطميين الذي قاد «حركة تمرد انتقاما لقتل المعز لدين الله الفاطمي الإمام أبي القاسم يزيد بن مخلد فبعث إلى جبل نفوسة وجربة ونفزاوة ووارجلان ووادي أريغ والزاب وأرسل إلى الدولة الأموية بالأندلس طلبا للمساعدة فلما علم المعز لدين الله الفاطمي بذلك عرض على أبي خزر صلحا يقضي بانسحاب الفاطميين من مواطن الأباضية في بلاد الجريد وجبال دمر وجربة... لكن الانتفاضة سرعان ما خمدت»⁽³⁾.

- الشراء وهي التضحية في «سبيل الله» لأجل «رفع الظلم» والتصدي «لأمراء الجور» وهم نفر لا يقلون عن أربعين فردا نذروا أنفسهم للدفاع عن المذهب فيما يرونه ظلما وجورا وهو أمر اختياري تطوعي.

(1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 59.
(2) الدرجيني (أبو العباس أحمد)، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1 ص 6.
(3) معمر (علي يحيى)، الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة، الأباضية في تونس، دار الثقافة بيروت 1966، ص 60.

يقول الشماخي: «مسالك الدين أربعة: الكتمان، وهو ما كان عليه عليه السلام قبل أن يهاجر، وما كان عليه جابر [بن زيد] وأبو عبيدة [مسلم]، ثم الظهور وهو ما كان عليه السلام بعد أن أمر بالجهاد، وما كان عليه أبو بكر وعمر وغيرهما ممن قام بحق الدين. ثم الدفاع كأهل النهر ممن تكون إمامته ما دام القتال، فإذا زال القتال زالت كعبد الله بن وهب الراسبي والشراء كأبي بلال بن مرداس وغيره»⁽¹⁾.

يعدّ مسلكا الكتمان والظهور المسلكين الرئيسيين ولا يعدم أحدهما بينما الدفاع والشراء مسلكان انتقاليان ومؤقتان بين الكتمان والظهور في حال النصر أو الهزيمة⁽²⁾.

يختلف الباحثون في ترتيب هذه المسالك، فبينما يضع مهدي طالب هاشم الكتمان في مرحلة أولى، يليها الدفاع والشراء وتتوج المراحل بمرحلة الظهور⁽³⁾، فإن فرحات الجعيري يختلف عن ذلك حيث يقول: «مسالك الدين أربعة: الظهور والدفاع والشراء والكتمان»⁽⁴⁾، وهذا الترتيب الأخير يبدو أقرب للسياق التاريخي الذي عرفه المجتمع النفوسي.

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 553.

(2) تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب، تونس 2014، ص 116.

(3) هاشم (مهدي طالب)، الحركة الإباضية في المشرق العربي، ط3، لندن 2009، ص 264. ورد لدى: تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب تونس 2014، ص 115.

(4) الجعيري (فرحات)، عمر بن جميع وكتاب عقيدة التوحيد، ص 3. ورد لدى: تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب تونس 2014، ص 116.

عرف المجتمع النفوسي الشكليين الرئيسيين من التنظيم السياسي وفق المذهب الأباضي فقد تمثل الشكل الأول في إمامة الظهور طيلة عهد الإمارة الرسمية حيث ساد مفهوم «السلطة» وهي حسب محمد أركون، «إما أن تستند على السيادة العليا أو على الإكبار والقصر» وفي هذه المرحلة اجتمعت السيادة العليا بما هي «الانتساب العفوي لشخص ما إلى جملة من العقائد والرموز» مع العنف وهو القصر بهدف «امثال المأمور للأمر على الشكل المطلوب»⁽¹⁾.

فقد خضعت نفوسة لسلطان الرستميين وكانت أكثر الناس طوعا ومؤازرة لحكمهم بينما اتبعت فصائل من زناتة مثل بني يفرن وزواغة دعوة النكار مع خلف بن السمح وابنه الطيب، فما كان من نفوسة إلا استعمال القوة لردهم إلى الدولة ردًا وقطع الطريق أمام دعوات الانفصال عن تاهرت⁽²⁾.

أما بعد انقضاء أيام الرستميين، فقد عرف النفوسيون الشكل الثاني في التنظيم وهو «الكتمان» وذلك بتطبيق نظام العزابة القائم على «السيادة العليا» دون العنف وبين المرحلتين عرف الدفاع والشراء.

عقب انهيار الدولة الرسمية تراجع المذهب الأباضي خاصة في شقه الوهبي كثيرا، فلم يبق إلا بجبل نفوسة وجربة خلافا لما ذهب إليه ليفتسكي الذي يقول: «عقب انهيار إمارة تيهرت سنة 296هـ / 909م

(1) أركون (محمد)، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م.م. ص 167، ورد لدى: تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب، تونس 2014، ص 89.

(2) الزواري (محمد)، التعمير والعمران بجبل نفوسة في العصر الوسيط، أطروحة دكتورا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية نونس، السنة الجامعية 2015-2016، ص 337.

وتأسيس الدولة الفاطمية ببلاد المغرب حيث أصبح الجنوب التونسي والجزائري كله من جبل نفوسة حتى تيهرت نكاريا⁽¹⁾.

سرعان ما عاد النكار إلى الوهبية عقب هزيمة صاحب الحمار وخلافا كذلك لما ذهب إليه ليفتسكي⁽²⁾، لم يكن تراجع المذهب الأباضي بسبب وصول الهلاليين إلى إفريقية بل تم قبل ذلك بقرون أي بعد هزيمة مانوا وسقوط إمارة الرستميين مباشرة.

لقد نشطت الدعوة النكارية خاصة في الأوساط البدوية فهي تتعارض مع المدنية التي يمثلها الشق الوهبي من الأباضية في كثير من جوانبها وفي المجال البدوي الشاسع الواسع تراجعت ثم تلاشت.

(1) ليفتسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، الجزء الأول، ترجمة أحمد بومزق ومحمد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية 2005، ص 43.

(2) ليفتسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، الجزء الأول، ترجمة أحمد بومزق ومحمد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية 2005، ص 75.

المبحث الأول

حركية المجتمع النفوسي

1 - نفوسة من القبيلة إلى المجتمع:

دخل الإسلام مبكرا إلى مجالات البربر فقد فتح عمرو بن العاص جبل نفوسة سنة 23هـ / 644 م وتحدث المصادر عن ردة عدد كبير من القبائل البربرية، فقد « كان الفتح العربي للمغرب طويلا ومضنيا وصعبا »⁽¹⁾، ولم يستقر الدين الجديد إلا في أيام موسى بن نصير، يقول ابن خلدون: « إن البربر ارتدوا بإفريقية المغرب إثنى عشرة مرة وزحفوا في كلها للمسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير، وقيل بعدها »⁽²⁾.

لم تكن نفوسة من ضمن القبائل البربرية التي ارتدت والردة هنا بما هي خروج عن السلطان وليست خروجا عن الدين في القرن الأول للإسلام لأن الناس في هذه الربوع لم تتحول بعد إلى ممارسة عقائد الإسلام وطقوسه، إلا أن حيز طرابلس بكليته وقبائل البربر في أغلبها قد انخرطت في الثورات مع بداية القرن 2 هـ / القرن 8 م، يقول ابن خلدون: « واستشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية ورؤوسها، وانتفضوا من أطراف البقاع، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى

(1) جعيط (هشام)، تأسيس الغرب الإسلامي - القرن الأول والثاني هـ / السابع والثامن م - دار الطليعة، بيروت 2004، ص 135.
(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 135.

بدعتهم... وثار بطرابلس عبد الجبار والحارث من هوارة وكانا يدينان برأي الإباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي لما خرج إليهم يدعوهم إلى الصلح وبقي الأمر على ذلك مدة وثار إسماعيل بن زياد في قتل البربر. وأئخن فيهم وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين ومائة فظفر بها ودوخ المغرب وأذل من كان فيه من البربر. ثم كانت بعد ذلك فتنة ورفجومة وسائر قبائل نفزاوة سنة أربعين ومائة»⁽¹⁾.

ذهب المؤرخون العرب مذهب الهجوم على هذه الثورات واعتبارها تمردا على السلطان ومروقا من الدين ووصفوا قادة هذه الثورات بأقذع الأوصاف وأشنعها، أما الباحثون المعاصرون فقد نحا جلهم منحى البحث عن محاور الصراع وفسروا الثورات بأنها صراع عربي - بربري أو بربري - برنسي أو صراع مذهبي بين السنة والخوارج والشيعية، إلا أن الأمر يبدو أعمق من ذلك إذ نحن إزاء تحولات كبرى على المستوى العالمي بدأت دينية وسياسية ثم طال هذا التطور البنى الاقتصادية حيث بدأ التحول التدريجي من النظام العبودي إلى النظام الإقطاعي وما رافق هذا التحول من ظلم كبير لقيه البربر من قبل الولاة الأمويين وكذلك العباسيين وشمل هذا الظلم المجال السياسي فلم يكن من الممكن للبربر بلوغ مناصب هامة في إدارة الولايات خاصة بعد توقف الفتوحات⁽²⁾، وفي المجال الاقتصادي برزت فئة من الأرستقراطية العربية والقرشية تحديدا استأثرت بغلة التجارة خاصة

(1) ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 141.

(2) مثل الجيش العربي المصعد الاجتماعي للبربر حيث بلغ طارق بن زياد مناصب عليا في جيش موسى بن نصير إلا أن توقف عمليات الفتح مع بداية القرن 2 هـ / القرن 8 م قد فاقم الايديولوجيا الأموية القائمة على العنصر العربي ما ذكر البربر بممارسات الرومان والبيزنطيين. أنظر: العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، ط 5، بيروت 1996، ص 141.

وكذلك بالأراضي الخصبة، وفي المجال الاجتماعي لم يتغير الأمر كثيرا على البربر قبل إسلامهم أو بعده فقد كانت الزكاة تجري عليهم كما لو أنهم ما يزالون على «جاهليتهم» مثال ذلك الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب الذي كان يعتبر إفريقية أرض خراج فقام باستنزافها كما «تحلب الناقة» لذلك كثرت ثورات البربر⁽¹⁾ لما أحس البربر أنهم فيء للمسلمين»، وبلغت إثني عشرة مرة⁽²⁾، فقد كان الولاة يتعسفون على البربر بالمغرب إرضاء لأمراء بني أمية في المشرق، يقول ابن عذاري في البيان المغرب: «وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية فيبعثون لهم البربر السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فأضطر إلى التعسف وسوء السيرة فحيثئذ عدت البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب»⁽³⁾.

استغل الخوارج في بلاد المغرب ارتداء قبضة الأمويين خصوصا بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ / 743 م ودخول الخلافة الأموية الأيام الأخيرة من طور الضعف وانشغال البيت الأموي بالصراع على السلطة، ثم تفاقم الثورات الخارجية بعد استيلاء العباسيين على سلطة الخلافة فاهتموا بالمشرق ورموا المغرب وراء ظهورهم⁽⁴⁾.

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 221.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص 52. ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 156.

يرى عبد الرازق أن ثورات الصفرية هي التي حفزت الأباضية على التحرك أما ما أخرهم عن ذلك هو وقوع مجالهم -حيز طرابلس- على طريق جند الخلافة بين المشرق والمغرب، أنظر: عبد الرازق (محمود اسماعيل)، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط 2، المغرب 1985، ص 37.

(3) عبد الرازق (محمود اسماعيل)، نفسه، ط 2، المغرب 1985، ص 96.

على أهميته لا يمكن للعامل الاجتماعي وحده أن يفسر ثورات البربر التي اندلعت في ظرفية تميزت بضعف الخلافة الأموية وارتداء قبضتها مع ظلم بعض الولاة لا كلهم والتحويلات الاقتصادية الكبيرة، إضافة إلى العامل التاريخي الذي تمثل في تقاليد البربر المناوئة للسلط المتعاقبة ورفضها للحكم المركزي نظرا للطبيعة البدوية التي تميز أغلب القبائل.

وجد البربر في المذاهب المعارضة مخرجا لوضعيتهم المتدهورة فاعتنقوا الصفرية وآزروا حركة ميسرة المطغري سنة 120 هـ / 738 م لأن عنف هذا المذهب يتناسب مع نقيمتهم، ثم بعد هزيمتهم فشى المذهب الإباضي في مناطق عديدة وهو معارض للسلطان ولكنه أقل عنفا وكان هذا المذهب قد دخل جبل نفوسة منذ بداية القرن 2 هـ / القرن 8 م على يد الداعية سلمة بن سعد الذي قدم من البصرة⁽¹⁾.

كان أول ظهور قيادي لقبيلة نفوسة على مسرح الثورات مع قائدها إسماعيل بن زياد النفوسي الذي استولى بمؤازرة قبيلته على قابس سنة 132 هـ / 750 م مستغلا سقوط الأمويين واضطراب حال الخلافة ولكنه قضى على يد عبد الرحمان بن حبيب، يقول ابن عبد الحكم: «فولّى البربر على أنفسهم إسماعيل بن زيادة النفوسي، فعظم شأنه وكثر بيعه، فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقابس قدم

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 245-246.

ينقل الشماخي عن سلمة بن سعد الوافد من البصرة حماسه الكبير من أجل إقامة المذهب الإباضي ببلاد المغرب ربما للفشل الذريع الذي مني به المذهب في المشرق حيث يقول: «وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا، فما أبالي أن تضرب عنقي».

ابن عمه شعيب بن عثمان في خيل، فلقبه إسماعيل، فقتل إسماعيل وأصحابه، وأسر من البربر أسارى كثيرة⁽¹⁾.

استأنف الخوارج الأباضية ثوراتهم بعد الهزائم المتكررة وكانت هذه المرة في منتصف القرن 2هـ / القرن 8م أكثر تأثيرا في مسير أحداث بلاد المغرب، يقول ابن خلدون: « واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل ورفجومة ومن إليهم من نفزاة برارة طرابلس الإباضية من هواراة وزناتة فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عليها واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هناك من زناتة وهواراة وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر ورفجومة ونفزاوة، واستولى على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة ثم ولي على القيروان عبد الرحمن بن رستم وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية، كان من موالي العرب ومن رؤوس هذه البدعة. ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس واضطرم المغرب نارا وانتزى خوارج البربر على الجهات فملكوها⁽²⁾.

في هذه الأثناء أحيت القبائل البربرية نظما كثيرا ما تبتتها زمن الحروب مثل الاتحادات القبلية، بدأ ذلك مع اتحاد هواراة وزناتة سنة 120هـ / 738م تحت قيادة الحارث وعبد الجبار ثم تجدد هذا الاتحاد عند قيام أبي الخطاب بن السمع المعافري سنة 140هـ / 758م واستطاع السيطرة على إفريقية إلى أن سقط أمام الجيوش العباسية سنة 144هـ / 762م، يقول الورجلاني: «وكانت ولاية أبي الخطاب أربع سنين» من 140هـ إلى 144هـ⁽³⁾.

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الذخائر، مصر دون تاريخ، ج1، ص 302. أنظر كذلك:

ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 141-149-150.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 146-147.

(3) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي

يفسر ابن العذاري هذه الهزيمة بصراعات شقت الاتحاد القبلي حيث يقول: «ثم أن زناتة وهواراة تنازعت فيما بينهما، واتهمت زناتة أبا الخطاب في ميله مع هواراة فقارقه جماعة منهم وبلغ ذلك ابن الأشعث فسربه ورحل إليه⁽¹⁾.

بينما يسكت الورجلاني عن هذا الخلاف ويذكر أن السبب هو انصراف جيش أبي الخطاب إلى مزاولة الأعمال الفلاحية «وكان وقت حصاد» بعد أن توفر له حوالي سبعين ألف مقاتل من «نفوسة وهواراة وجريشة»⁽²⁾.

تمكن بعد عقد من الزمن أبو حاتم يعقوب بن ليبي المملوزي الهواري من إقامة إمامة الدفاع في طرابلس مباشرة بعد هلاك أبي الخطاب، يقول الورجلاني: «أن أبا حاتم ولي مدينة طرابلس في رجب أربع وخمسين ومائة ومكث فيها أربع سنين وكانت ولايته ولاية دفاع وطلب الحق يرسل ثقاته بما يجمع من مال إلى عبد الرحمان قبل ظهوره»⁽³⁾.

زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 59. ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 159.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1 ص 72.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 68.

(3) الورجلاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 36.

تذهب عديد الدراسات إلى اعتبار أن البيعة قد تمت لفائدة عبد الرحمان بن رستم مباشرة إثر مقتل أبي الخطاب سنة 144هـ / 762م في الوقت الذي قدم فيه الأباضيون البيعة لأبي حاتم لإمامة الدفاع، وتجديد البيعة لعبد الرحمان بن رستم سنة 162هـ / 779م. أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 159، عبد الرازق (محمود اسماعيل)، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط2، المغرب 1985، ص 150.

مثل الفكر الخارجي حركة تمرد عاتية ضد سلطة الولاة وجد فيه البربر ما يتلاءم مع أفكارهم ومعتقداتهم، يقول محمد حسن: «جد تناسب بين فكر الخوارج الذي يبدو متنافيا مع المدنية المفرطة ونظام الدولة المحكم وبين التنظيم القبلي للمغاربة المرتكز على حضارة شفوية وتشريع العرف الجاري، إن هذا التناسب بين الأيديولوجية والبناء التحتي للمجتمع قد تميز بجدلية مستمرة حثت المغاربة على تجاوز النظام القبلي البحث وتخطي مرحلة إتحادات القبائل وصولا إلى نظام الدولة وقيام شعوب موحدة»⁽¹⁾.

أسس النفوسيون ومن تحالف معهم من قبائل البربر مثل هواره ومزاة وبعض زناتة إمارة الرستميين القائمة على الإيديولوجيا الأباضية وعمرت هذه الدولة حوالي قرنين ونصف، فقد نشأت سنة 162هـ / 779م وسقطت سنة 296هـ / 909م على يد الفاطميين⁽²⁾، وساعد على ذلك إجماع قبيلة نفوسة على المذهب الأباضي خلافا لبقية القبائل التي انقسمت بين فرق الخوارج.

تم في بداية القرن الثالث للهجرة اقتسام المجال بين الدولة الرستمية والأغلبية حيث يحتفظ الأغلبية بالجادة الكبرى ويسيطر الرستميون ونفوسة على الصحراء والتجارة الصحراوية، يقول ابن خلدون: «وجأجأ هواره بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا

العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه بالقيروان، وقد عهد إليه فصالهم على أن يكون الصحراء لهم»⁽¹⁾.

كما عرف المجال الجبلي منذ القرن 4هـ / القرن 10م تحولات بعد استيلاء العبيديين على الحكم بإفريقية، ودارت حروب عديدة بين صنهاجة وزناتة وكان جبل نفوسة مسرحا للعديد منها، يقول ابن خلدون: «وكانت بينه (المعز بن باديس) وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو مذكور»⁽²⁾.

بعد سقوط دولة الرستميين تراجع كثيرا وضع نفوسة وأسلموا أمرهم للفاطميين، يقول البغطوري: «ثم عامل المسودة من صنهاجة أرسل إلى نفوسة أن يرسلوا له ألف دينار فمضى أبو زكريا في بلدان نفوسة فلم يجد غير مائتي دينار»⁽³⁾.

كما بدأ الوضع الأمني تدرجيا يميل إلى الانخرام وكثرت الصراعات التي تشير إليها المصنفات الإباضية، حيث قام البدو من البربر بقتل الشيخ أبي الربيع سليمان حيث يقول البغطوري: «وذكروا عن الشيخ أبي الربيع سليمان بن هارون اللالوتي أنه خرج هو وتلاميذه في الخصوص في أيام الربيع فصادفهم بنو تجين يمشون بين الخصوص فقتلوه هو وعزابه فكتب بذلك أبو يحيى الفرستائي إلى أهل جادو أن المسلمين تتكافأ دمائهم بلغنا أن تسعة رهط من بني لجين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قتلوا أبا الربيع ومراده إن قدر عليهم أهل جادو أن

(1) بن حسن (محمد)، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، ص 77.

(2) يختلف الدارسون في تحديد بداية الدولة الرستمية، بينما يقدم بحاز بكير سنة 160هـ / 777م، أنظر: بكير (بحاز إبراهيم)، الدولة الرستمية، ط 3، سلطنة عمان 2014، ص 91. بينما يرى عبد الرازق أن ذلك تم سنة 162هـ / 779م، أنظر: عبد الرازق (محمود اسماعيل)، نفسه، ص 150.

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 185.

(2) ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 210.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 75.

يقتلوهم فليفعلوا وبلغنا أن أبا الربيع مات وهو ابن سبع وعشرين سنة والتلاميذ يتعلمون عنده وقد جازت عليه نسبة الدين»⁽¹⁾.

قدم الأعراب من بني هلال وبني سليم إلى إفريقية وقد رافق ذلك تغيير كبير على جميع الصّعد، يقول ابن خلدون: «وأما إفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فتح كانت ديارا لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر وكانت قاعدتها القيروان وهي لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوارة ومغلوبون تحت أيديهم. وقد تبدوا معهم ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم»⁽²⁾.

بالإضافة إلى التفكك السياسي شكل الغرب المسيحي في النصف الأول من القرن 6هـ / القرن 12م خطرا كبيرا تمثل في احتلال المدن الساحلية، يقول ابن خلدون: «وأما طرابلس فكان رجار صاحب صقلية لعنه الله قد استولى عليها سنة أربعين وخمسمائة»⁽³⁾ (1145/1146م).

تغلب البدو من العرب والبربر على المستقرين من نفوسة التي كسرت شوكتها منذ معركة مانو وخضعت ظاهريا للسلط المتعاقبة خاصة مع الحفصيين والاحتفاظ بسمات خاصة تمثلت أساسا في إبداع نظام اجتماعي هو نظام العزابة الذي أنشئ منتصف القرن 5هـ / القرن 11م. كما مثل الجبل في ذات الوقت ملجأ كل معارض للسلط المركزية مثل ابن غانية الذي عمل على احياء دولة المرابطين ومسرّحا

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 34.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 134-135.

موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط 1، الشارقة 1998، مادة «بنو هلال»، ص 10062.

(3) ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 223.

لمغامرات قراقوش العسكرية ومحاولته توسيع نفوذ الأيوبيين على حساب الموحيدين.

ثم خضع الجبل إلى الحفصيين بالتوازي مع سيطرة السليميين على المجال الممتد بين جنوب إفريقية وطرابلس وبدأ الكثير منهم ينحو نحو الاستقرار ويتبنى كثيرا من مقومات البربر.

كما تعرضت نفوسة في نهاية العصر الوسيط إلى غزوات تحالف ورغمة الذي نشأ بجبل دمر وتعاضمت قوته ليسيّط في العصور الحديثة على مجال واسع من جنوب إفريقية.

شكل عدد 1:

مكونات المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط:

القبيلة	توزيعها الجغرافي	المصادر
نفوسة	قبيلة نفوسة البربرية وهي Navusi الوارد ذكرها لدى كوريب، أعطت اسمها للجبل وتوسعت فضمت فصائل قبلية عديدة شكلت معا المجتمع النفوسي.	ابن عبد الحكم، فتوح افريقية و الأندلس، ص 28. كوريوس، الجوهانيد (IOHANNIDOS)، ص 51.
زناتة	قبيلة بربرية بدوية يمتد مجالها من طرابلس إلى الصحراء وتتكون من عدد من البطون بجنوب افريقية مثل يفرن ودمر وواسين ومغراوة وسدراته وغيرها	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 855.
الزنتان	زنتوس زنتوس الاسم الروماني لقبيلة زناتة البربرية	Ch. Tissot, T II, p. 698.

القبيلة	توزعها الجغرافي	المصادر
بنو واسين بنو وسين بنو ويسي ان	بقرية واسين شرقي جادو وهي قبيلة بربرية وهبية من زناتة بني تيجرت وقعت حرب بينها وبين بني يفرن وانهزمت واسين.	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 877.
بني يخلف	قبيلة بجهة يفرن حيث نجد وادي وديار وكاف بني يخلف شمال شرقي يفرن.	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 881.
سدراة اسدراتن	قبيلة بربرية استقر قسم منها بالناحية الغربية لجبل نفوسة	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 856.
هواره	قبيلة بربرية اباضية كان لها دور سياسي هام في القرن 2 هـ ربما لها علاقة بموقع أور Aure	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 876.
إِمْلُذْيَانْ	قبيلة بربرية بقرية تشررايكن	الشمّاخي، القصص والطرق، ص 27.
ورسطف	ورسطف فصيل قبلي كبير الحجم من مكناسة ورد ذكره بالقصير منه آل شماخ ويذكر العقوبي فصيل قبلي آخر تحت اسم وورسطف ينتمي إلى هواره الأباضية	ابن خلدون، ج 6، ص 170-183. اليقوبي، كتاب البلدان، ص 93.
ضريسة جريسة	قبيلة البربرية بقرية أم الجرسان	ابن خلدون، ج 6 ص 155.
الشقارنة	فصيل قبلي يفرني بربري	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 950.
يفرن	قبيلة زناتية نكارية ثم اصبحت وهبية وقد وقعت حرب بين بني يفرن وبني واسين وانهزمت واسين	ابن خلدون، ج 7، ص 11.
بنو زمور	قبيلة بني زمور بربرية اباضية سكنت شرق جادو حول تيركت	ابن خلدون، ج 6، ص 149.

القبيلة	توزعها الجغرافي	المصادر
إشارن	قبيلة شارن البربرية التي سكن قسم منها شمال البلاد التونسية	البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، ص 141.
تاستوت	قبيلة سانتيتاس اللوية استقرت في القرن 5 و 6 م بجبل نفوسة	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 857.
أهل اندامر	فصيل قبلي له علاقة ببني دمر بقرية تاردايت	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 831.
بني درف	قبيلة بربرية استوطنت قرية ايدرف	ابن حوقل، صورة الأرض
بني تدريمت	فصيل قبلي حول جادو	البكري، كتاب المسالك والممالك، ج 2 ص 655-656.
الكوجيلة	فصيل قبلي بربري مالكي بقرية مزو	
أرجان أركان	اسم لفصيل قبلي بربري بقرية أرجان	الشمّاخي، كتاب السير، ج 3 ص 827. كوريوبوس، الجوهانيد (Iohannidos)، ص 117.
بنو مكسور	فرع من نفوسة بقرية تين مصغورة	ابن خلدون، ج 6، ص 149.
أنيرتاي	قبيلة ليبية يذكرها بطوليمي في معرض حديثه عن كتاثموس الكبرى أعطت اسمها لقرية إينر	عبد العليم (مصطفى كمال)، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي 1966. ص 79.

2/ الهجرات النفوسية من الجبل وإليه:

مثل جبل نفوسة ملجأ وملاذ للقبائل النابذة ولكل المغامرين والمعارضين، كما كان للأباضيين بمثابة دار هجرة منذ تبني ساكنته مذهب ابن أباض، لذلك نجد كتب السير تسمي النفوسيين بأهل الدعوة، فلا يتم أمر في أرجاء المجال الأباضي الممتد إلا بعد استشارة أهل الدعوة في جبل نفوسة سواء قبل معركة مانو أو بعدها، إلا أن ما قبل هذه المعركة الحاسمة ليس كما بعدها، فقد تبدلت الأحوال وتحول الجبل من جاذب للجماعات والمهارات إلى دافع لها في الفضاء الأباضي، فكان انتشار الخبرات والمهارات النفوسية خارج جبل نفوسة.

استقبل جبل نفوسة عددا كبيرا من الأباضيين من غير النفوسيين مبكرا، حيث يخبر ابن حوقل عن نزوح أهل النهروان إلى جبل نفوسة⁽¹⁾ وتبدو هذه الإشارة غير دقيقة، خاصة وأنه انفرد بهذا الخبر بينما لم يذكره غيره من الإخباريين كما أن عبد الله بن وهب الراسبي قد قضى في النهروان⁽²⁾ ولكن قد تحيل هذه الإشارة إلى قدم توجه الأباضيين المشرقيين إلى جبل نفوسة بعد محتهم في النهروان وكذلك في مواجهة الحكم الأموي القوي⁽³⁾.

يمتد المجال النفوسي في نهاية العصر القديم في القرن 6 م من مدينة صبراته على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب جبل

القبيلة	توزعها الجغرافي	المصادر
الجبثول جاوتولي	قبيلة لبية أعطت اسمها لقرية ايجيطال	الدرجيني، الطبقات، ج 2 ص 294.
بنو مركاس	قبيلة بربرية اباضية سكنت سدراتة في القرن 4 هـ وقد أعطت اسمها لقرية مرقس	الشماسي، كتاب السير، ج 3 ص 870-871.
بنو تيجن بنو تيجين	قبيلة زناتية وهبية في القرن 4 هـ ربما هي توزين التي ذكرت في غمران بجبل دمر أعطت اسمها لقرية تيجي	الشماسي، كتاب السير، ج 3 ص 845.
كبا كاباو	قبيلة بربرية وهي قسم من هواره حسب ابن خلدون، كما تذكر المصادر قائد بربري اسمه كاباون قاوم الوندال وانتصر عليهم.	ابن خلدون، ج 6، ص 118.
بنو ويوري وريوري	ربما للاسم علاقة بقبيلة هواره البربرية الاباضية يعطي وهذه الأخيرة شبيهة باسم قرية واقعة على طريق الأنطونيين، حيث وردت Auru بموقع العونية وقد أعطى اسمه لقرية وريوري.	Lewicki(T); « Tasmiyat Gabal Nafousa wa qurahum » p 81, n° 82
بني بكر بكر	قبيلة بربرية أباضية سكنت قرية بني بكر	الشماسي، كتاب السير، ج 2 ص 390.

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1992، ص 92-93.
(2) الشماسي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان،
2009، ج 3 ص 975.
(3) عبد الرازق (محمود اسماعيل)، الخوارخ في بلاد المغرب حتى منتصف
القرن الرابع هجري، ط 2، المغرب 1985، ص 43.

نفوسة، فكان مجال تنقل القبيلة شاسعا، إلا أنه انحسر مع بداية الانتشار الإسلامي، فمكث النفوسيون في الجبل الذي يحمل اسمهم مع عدد غير محدود من العشائر والبطون البربرية الأخرى من زناتة وهوارة وجريشة وهكسورة ومطوسة... وسرعان ما استأنفوا السيطرة على هذا المجال الممتد بين البحر والصحراء خاصة مع بداية القرن 2هـ / القرن 8م وبداية انتفاضات البربر، وتدعم هذا الأمر بإنشاء أول كيان أباضي على يد أبي الخطاب بين 140هـ و 144هـ / 758م و 762م وحركة أبي حاتم الملزوزي بعد ذلك، وحتى الاتفاق الذي عقده النفوسيون مع الإمارة الأغلبية على اقتسام المجال بحيث يحافظ الأغلبية على الجادة العظمى ويسيطر النفوسيون على ما وراها إلى الصحراء، يقول ابن خلدون: «وجأجأ هؤارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه بالقيروان، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم»⁽¹⁾، لم يمنعهم هذا الاتفاق من ملاحقة المنشقين من زواغة الساحلية إلى جربة، يقول الورجلاني: «سار المنصور ومن معه من نفوسة فلما وصل إلى أريصة قرب طرابلس وجد بها جماعة زواغة وقد اتحدوا على ولد خلف وأرادوا منعه من أبي منصور فتكلم شيخ كبير من شيوخ بني يهراسن يقال له أبو سلمة وقال: يا معشر زواغة هل لكم في ثلاث أن تفعلوا واحدة منهن، الأولى أن تدعوا تربة أريصة وتدخلوا جربة وتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم والثانية أن ترسلوا إلى تاهرت أن يستعمل عليكم عاملا فتخرجوا من طاعة نفوسة، والذل لهم، والثالثة أن تدفعوا إلي ولد خلف لأسير به إلى نفوسة»⁽²⁾، وانتهت المعركة بانتصار كاسح لنفوسة

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 185.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي

وؤاد فتنة ابن خلف، كما لى النفوسيون نداء الاستغاثة الذي أطلقه سكان طرابلس أمام غزوة ابن طولون سنة 268هـ / 882م.

لقد سعى النفوسيون وأحلافهم من البربر طيلة هذه الفترة الدفاع عن مجالهم الواسع الذي يتضمن الجبل ضمنا لحرية التنقل خاصة وأن سمات الارتحال مازالت حية فيهم.

تدل عديد الإشارات على أن الجبل في هذه الفترة الزمنية لم يكن طاردا للسكان بقدر ما كان جاذبا لهم وهو ما تؤيده الوقائع الأثرية وحتى الارتحال عنه كان لأسباب ذاتية أو اقتصادية ولم يكن لأسباب أمنية إلا بعد حادثة مانوا، فقد قدم الشيخ الطاهر بن يوسف أصيل المهدي ليعيش بمنزل آشفي في جبل نفوسة في القرن 3هـ / القرن 9م، وغيره كثير.

عرف جبل نفوسة في القرنين 2 و 3هـ / القرن 8 و 9م ضغطا ديموغرافيا مرتفعا بسبب توافد الأباضيين على جبل نفوسة الذي عرف عصره الذهبي في ظل الدولة الرستمية وقبل معركة مانوا المصيرية.

رغم كثرة الأخبار التي تتحدث عن قدم الهجرات النفوسية إلى خارج الجبل والتي تعيدها إلى القرن 2 و 3هـ / القرن 8 و 9م، إلا أن الواقع الأثري يفيد أن الجبل ظل في هذه الفترة بالذات جاذبا للفصائل القبلية وللتجار ولطلبة العلم، فقد ارتفع عدد القرى كما كبر حجم العديد منها حتى بلغت جادو وشروس مضاف المدن، يقول صاحب كتاب الاستبصار أن عدد قرى نفوسة يتجاوز ثلاثماية قرية: «وفي وسط هذا الجبل مدينة جادوا وهي مدينة كبيرة لها أسواق حافلة وأكثر أهلها اليهود وهي أم قرى جبل نفوسة ومدينة شروس وهي مدينة كبيرة جليلة

زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، 151.

قديمة فيها آثار الأول وأهلها أباضية وليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى وفي نظرها أزيد من ثلاثماية قرية⁽¹⁾.

وكانت شروس على غرار مدن العالم الإسلامي واسعة ومزدحة بالسكان حتى قال فيها أبو يحيى الفرسطائي: «ما أوسع شروس وما أضيقتها»⁽²⁾، كما توسعت بقية القرى مثل قرية إفاطمان التي كانت منزلا في القرن 2 هـ / القرن 8 م ثم بلدا في القرن 3 هـ / القرن 9 م وأصبحت قرية كبيرة مع القرن 4 هـ / القرن 10 م.

كما بلغ عدد المساجد 78 مسجدا مبنيًا قبل القرن 4 هـ / القرن 10 م، علاوة على اتساع بيت الصلاة التي تعدّ ثلاثة أروقة فما فوق مثلما هو الحال في مسجد شروس الشهير، كما شهدت عديد المساجد توسعة وإحداث صف مخصص للنساء وكل ذلك دليل على ارتفاع عدد ساكنة الجبل.

يعدّ الجبل 87 قرية في القرن 4 هـ / القرن 10 م حيث تضاعف تقريبا عدد القرى وكبر حجمها وهو دليل على أن الجبل يتمتع في هذه الفترة بمكانة مهمة وجاذب للناس من أصقاع الأرض⁽³⁾.

بدأ الوفود على جبل نفوسة مبكرا، منذ النصف الثاني من القرن 2 هـ / القرن 8 م ومثال ذلك، أبو مرداس مهاصر التبرستي وهو مهاجر من سدرات بالمغرب الأوسط، عاش في النصف الثاني من القرن 2 هـ

(1) كاتب مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958، ص 144 و 145.

(2) البغطوري (مقرين بن محمد)، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ج1 ص 64.

(3) الزواري (محمد)، التعمير والعمران بجبل نفوسة خلال العصر الوسيط، أطروحة دكتورا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية 2015 / 2016.

/ القرن 8 م وبداية القرن 3 هـ / القرن 9 م، أخذ العلم عن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم وضريحه بقرية تبرست.

مثل جبل نفوسة قبلة التجار وطلبة العلم زمن الرخاء، يقول الوارجلاني عن أبي مسور بن وجين اليراسني: «أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم وكان تعلمه بجبل نفوسة»⁽¹⁾ ويقدم الدرجيني أكثر معلومات عن أبي مسور حيث يقول: «كان أبي مسور أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل وكان تعلمه بجبل نفوسة قرأ على أبي معروف وأبي زكريا يحيى بن يونس السدراتي»⁽²⁾.

ومن بين الطلبة الذين رحلوا إلى الجبل وأقاموا فيه لمواصلة تعليمهم العالي، نذكر أبا محمد ويسلان بن يعقوب المزاتي من علماء القرن 4 هـ / القرن 10 م، يقول الشماخي: «وأراد استكمال العلوم والعلو إلى أعلى المراتب، فاستأذن أمه في الطلوع إلى الجبل، وظنت أن جبلا بقريةها، وهو يعني نفوسة. فلما بلغها اشتغل بتحصيل العلوم... وأقام بالجبل سبع سنين، وحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرسه عند أهله»⁽³⁾.

كما مثل جبل نفوسة ملاذا للخائفين في كل الأزمان حيث استقبل عددا كبيرا من القنطاريين الذين نجوا من هجوم إبراهيم بن الأغلب العنيف عقب معركة مانوا، يقول الوارجلاني: «وكانت قنطارة قرية متوسطة الرقعة تحيط بها جنات وبساتين في سفح الجبل ترويه مياه

(1) الوارجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 251.

(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج1 ص 157.

(3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج2 ص 561.

غزيرة وتنتج أجود الفواكه والتمور وقد خربها إبراهيم بن الأغلب عقب وقعة مانو وانتقل من نجا من المعركة إلى تمصمص جنوب طمزين⁽¹⁾.

لقد استفاد جبل نفوسة من الوافدين الذين عمّروا الجبل وجلبوا معهم معارفهم وخبراتهم في المجال العلمي والاقتصادي.

تعدّ معركة مانو من أبرز الأحداث التي مرّت على جبل نفوسة في عصره الوسيط، حيث كانت سببا فيما تلاه من أحداث، فقد كانت واقعة مانو بداية الضعف والوهن الذي أصاب نفوسة قبل قدوم الهلالين بأكثر من قرن من الزمان، يقول الدرجيني: «ولما قتل أبو القاسم عظمت المصيبة فيه عند جميع أهل الدعوة، وبلغ فيهم قتله مبلغا عظيما ولم يجدوا فيه سلوة ولا سمحت نفوسهم بالصبر عن دمه... فأرسلوا إلى جهة طرابلس أبا نوح سعيد بن زنگيل فتوجه إلى جبل نفوسة وكان شيخهم والذي إليه ينتهي أمورهم عون بن عبد الله بن أبي عمر بن أبي إلياس فجمعهم أبو نوح وشاورهم، فقالوا له: نحن بعد وقعة مانو في ضعف والذي يظن بنا من الفضل لا ننهض إليه»⁽²⁾.

أدى هذا الواقع الجديد إلى استباحة الجبل بعد أن كسرت شوكة نفوسة فقد تمت محاصرة الجبل من قبل المسودة طيلة 12 سنة وتالت النائبات على الجبل.

تزامنت هذه الأحداث مع الانشقاقات التي بدأت تدب في الجسم الأباضي منذ بداية القرن 3 هـ / القرن 9 م، وقد تسببت في رحيل عدد من ساكنة الجبل إلى إفريقية منذ عهد الإمام عبد الوهاب بن رستم،

(1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 138.
(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1، ص 126-127.

يقول الوسياني: «وذكر عن الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه كتب إلى نفوسة الراحلين من الجبل كتاباً وهم الخارجون عنه وكانوا في ألف رجل وخاف مما قد يعتريهم من التغيير والتشتيت فكتب إليهم كتاباً مع عامله عليهم وأقنطع لهم أرضاً كثيرة، وهي هذه الحدود التي تذكر: بازدقلورية إلى تنوجدت إلى قبر الصياد إلى فج المصاييح إلى زيتونة الصعافير لنا وللمسلمين اغرسوا فيه بأمرنا واحرثوا فيه بإذننا، قال أبو محمد قال أبو زكريا يحيى بن ويجمن: إن الساحل كله داخل في هذه الحدود الأربعة. فنزلوه وقطنوه فيه ومن معهم، وهم أبرك خلق الله، وأزكى وأطيب وأجدر الأدباء، وأطوع الطائعين منهم إلى يومنا هذا، فيهم الإبرار والآدب ببركة الإمام نصر الله وجهه، وقدس روحه، وبرّد ضريحه، والمسلمين والمسلمات أجمعين. آمين يا رب العالمين»⁽¹⁾.

يبدو أن التحديد الجغرافي الذي قدمه الوسياني لهذه الرقعة من الأرض غير دقيق فهو يضعها في الساحل فهل نحن إزاء ساحل إفريقية المعروف بالمزاق أم ساحل طرابلس خاصة مع وجود «قرية صياد» غربي طرابلس بحولي 20 كلم وتحديدا شمال غربي جنزور⁽²⁾، وهو ما يدفعنا إلى البحث عن هذه المستوطنة النفوسية في الساحل بين قابس وطرابلس خاصة إذا ما علمنا أنها إقطاع وهبه الإمام عبد الوهاب الرستمي لنفوسيين ترضية لهم وخوفا من انشقاقهم، فلا يمكن له أن يهب ما لا يملك وما لا يقع تحت سيطرة الدولة الرستمية آنذاك، وفي

(1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 352.

(2) الزاوي (أحمد الطاهر)، معجم البلدان الليبية، ط 1 طرابلس ليبيا 1968، ص 214. حول اشكالية التحديد الجغرافي لهذه الوثيقة أنظر: ليفيسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، ترجمة أحمد بومزقو وتقديم موحّد ومادي، الجزء الأول، منشورات مؤسسة تالوت الثقافية، سلسلة دراسات 1، سنة 2005، ص 52 و 53 و 54.

المقابل يستبعد أن يكون لفظ الساحل الموجود في الوثيقة يقصد به ساحل إفريقية المعروف بالمزاق خاصة لقربه من القيروان ولسيطرة الأغلبة عليه⁽¹⁾.

ولعل أكثر المؤرخين دقة في تحديد هذا المجال كان الوردجاني الذي ذكر أن إياضية جبل نفوسة قاموا باستصلاح أراض إضافية خارج جبلهم في بلاد سوف واريغ من أرض تاهرت وذلك بإحيائها عن طريق حفر الآبار وزراعة النخيل بها، فجعلوا منها منطقة حيوية ذات اتصال مباشر ببلاد الجريد ووارجلان جنوبا، وجبل نفوسة وما ولاها شرقا ويرجع سبب استصلاح هذه الأرض أن ألف رجل من إياضية جبل نفوسة خرجوا على الإمام عبد الوهاب، فكتب إليهم يسترضيهم وأقطع لهم هذه الأرض مقابل حرثها وزراعتها، فهدأت ثائرتهم فرحا بهذه الأرض وأصبحت مستقرا وموطنا لهم بعد إحيائها⁽²⁾.

يذكر الشماخي نقلا عن ابن سلام الإباضي الذي كتب بعد سنة 260 هـ / 874 م، أن جالية كبيرة يصل عددها إلى 500 فرد من نفوسة كانت تستوطن منطقة باطن المرج شمال غربي القيروان يقول الشماخي: «ومنهم أبو عمرو حفصون النفوسي. قال ابن سلام: ومنزله بباطن المرج في عدد من نفوسة، نحو خمسمائة أو أكثر»⁽³⁾.

(1) يفند محمد الطالبي ما ذهب إليه ليفيتسكي حول حدود الدولة الرستمية التي تحصر الدولة الأغلبية في شمال إفريقية. أنظر: الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية، تعريب ومراجعة المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995، ص 250 و 400.

(2) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ص 244، 249، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج 2، ص 331، انظر أيضا: بحاز (إبراهيم)، الدولة الرستمية، ص 154.

(3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 415.

كما هاجر النفوسيون من جبل نفوسة واستقروا بكنطراة وهو ما يفسر تعيين وال عليها من الجبل هو أبو يونس وسيم النفوسي ثم ابنه سعد الذي شهد واقعة مانوا كما يفسر ذلك عودة القنطاريين إلى الجبل بعد أن خرب الأغلبة قريتهم.

ويقول البكري أيضا: «وحوالي قابس قبائل من البربر لواتة ولماية ونفوسة ومزاته وزواغة وزواوة وقبائل شتى أهل أخصاص»⁽¹⁾.

تحدث البكري كذلك عن مدينة فيلا ماغنا في زغوان التي أحدثها أبو القاسم بن أبي عبيد الله الفاطمي لاستقبال «الغرباء الشحاذين القادمين من بلاد هواره ونفوسة» حيث يقول: «وبزغوان قرى كثيرة أهلة كثيرة المياه والثمار والبساتين، منها فندق شكل المحلة المعروفة وهي على مرحلة من تونس قرية كبيرة أهلة، ومنها قرية قلمجنة كان أبو القاسم بن عبيد الله شرع في بنائها واتخذها مدينة يسكنها الغريب السائل من هواره ونفوسة»⁽²⁾.

كما يقول البكري: «وسكانها (أودغست) أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار»⁽³⁾.

ليفيتسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، ترجمة أحمد بومزقو وتقديم محمد ومادي، الجزء الأول، منشورات مؤسسة تالوت الثقافية، سلسلة دراسات 1، سنة 2005، ص 48.

(1) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفون وأنديري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، الجزء الثاني، ص 666.

(2) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفون وأنديري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، الجزء الثاني، ص 705.

(3) البكري (أبو عبيد)، نفسه، ص 849.

كثرت إذا في عهد الرستميين تنقلات النفوسيين واستقرارهم خارج جبلهم وخاصة بأرض إفريقية حول القيروان وفي بلاد الساحل ونعتقد أن ذلك لا يعود إلى الصعوبات التي عرفها الجبل بقدر ما كانت تنقل للمقاتلة في محاولة لبث الفوضى والاضطراب عند الأغلبية في إطار الصراع بين تاهرت والقيروان⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار تندرج نشأة قرية قنطرة ببلاد الجريد لتكون همزة وصل بين الأراضي الرستمية في المغرب الأوسط وطرابلس ولتكون كذلك حارسا للطريق التجارية القادمة والوافدة على تاهرت من المشرق ومن بلاد السودان ويكون النفوسيون عليها أمنا ما دعا الإمام عبد الوهاب إلى تعيين أبي يونس وسيم الطمزيني واليا عليها⁽²⁾، وهكذا تتدخل العوامل السياسية في تحول النفوسيين واستقرارهم خارج الجبل.

يبدو أن قسما كبيرا من نفوسة قد تحول إلى تاهرت زمن الرستميين يقول الباروني: «انحازت نفوسة والرستميون والعجم مع أبي يقظان إلى المحل المعروف بعدوة نفوسة وبنوا فيه حصنا منيعا شديدا... ثم بعد ذلك تفرقت نفوسة في الجهات طلبا للنجاة وقد استقر جمع كبير منهم بقلعة يقال لها قلعة نفوسة»⁽³⁾.

كما كانت القيروان وجهة النازحين من جبل نفوسة وغيره، يقول يحيى معمر: «ودامت القيروان إلى القرن الحادي عشر ميلادي مثابة للأباضيين الواردين من مختلف بقاع المغرب لتعلم العربية وآدابها،

(1) حسن (محمد)، «حول إحدى القبائل البربرية: نفوسة»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 10 الرباط 1984، ص 164.

(2) حسن (محمد)، نفسه، ص 164.

(3) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041 عدد، ص 235.

وكانت فروع من مزانة وهوارة تسكن حصن القيروان وهي على المذهب الأباضي من الوهبة في أيام بني زيري الصنهاجيين⁽¹⁾، وهو حال جبل وسلات، يقول يحيى معمر: «ودخلت الأباضية جبل وسلات حيث كانت معروفة إلى القرن الحادي عشر كما كان هذا المذهب موجودا بين سكان زغوان من نفوسة أثناء هذه المدة»⁽²⁾.

يمكن تفسير هذه الهجرات الكبيرة للنفوسيين من الجبل بعدة عوامل:

- ارتفاع عدد السكان وضيق المجال الجبلي وهو ما يفسر بعض الهجرات النفوسية القديمة في فترة ازدهار الجبل.

- طبيعة المجتمع النفوسي نصف المستقر الذي يهرع إلى الارتحال مع أول مشكل يعترضه اقتصاديا كان أو اجتماعيا.

- العوامل السياسية التي وراء هجرة عدد من النفوسيين إلى قنطرة وغيرها.

- الأزمات الاقتصادية والمجاعات والحروب الأهلية التي بدأت تعصف بوحدة المجتمع النفوسي واستقراره مع القرن 3 هـ / القرن 9 م وكانت ذروتها معركة مانوا.

تواصلت هجرات النفوسيين خارج الجبل باتجاه تونس في نهاية العصر الوسيط حيث يقول الوزان الفاسي: «وقد رجع سكان بلاد إفريقية عن هذه النحلة الضالة ماعدا هؤلاء الجبليين، ولذلك يذهبون إلى ضواحي تونس وغيرها من المدن حيث يزاولون حرفا بسيطة

(1) معمر (علي يحيى)، الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة، الأباضية في تونس، دار الثقافة ببيروت 1966، ص 48.

(2) معمر (علي يحيى)، نفسه، ص 48.

المبحث الثاني

حكمة الشيوخ وصلاح النساء

1 - شيوخ التدبير وأتباع التسيير:

يؤكد كتاب السير الاباضية على حكمة شيوخ جبل نفوسة طيلة العصر الوسيط وحسن تدبيرهم وقوة تأثيرهم⁽¹⁾، فقد تبنا من الفكر الخارجي المذهب الأباضي وهو يتناسب مع المرحلة التي تمر بها الثورات ببلاد المغرب وقاموا في الوقت الذي بدأ فيه نجم الأمويين في الأفول واستغلوا فترة الاضطراب لإعلان قيام دولة أبي الخطاب المعافري وكان شيوخ التدبير حاضرين في التأسيس، يقول الورجلاني: «اجتمع لأبي الخطاب شيوخ البربر من نفوسة وهوارة وجريشة»⁽²⁾.

عند فشل تجربة الإمامين أبي الخطاب وأبي حاتم، لجأ النفوسيون إلى تاهرت لإقامة الإمامة بعيدا عن الجادة العظمى، طريق الوصل بين شرق الخلافة العباسية وغربها، يقول الباروني: «ثم اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء وقالوا قد علم ما حلّ بنا من الشتات والافتراق بعد وفاة إمامينا ومبارحتنا طرابلس وقد أجمعنا على انتخاب مكان غيرها يليق بمنصب الإمامة ويكون ملجأ للإسلام»⁽³⁾، هذا وقد

(1) تيري (جاك)، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ليبيا 2004، ص 414.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 58.

(3) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041-دد، ص 83.

لكسب معاشهم، متحرزين من إظهار عقيدتهم خشية أن يتعرضوا لعقاب المتربصين بهم»⁽¹⁾.

يبدو أن الأباضية المتفرقون في أرجاء المغرب الأدنى قد بدأوا في الاستقرار بجزيرة جبل نفوسة منذ القرن 6هـ / القرن 12م، وهكذا أصبح الجبل جاذبا للجماعات البدوية الباحثة عن الملجأ والاستقرار⁽²⁾، كما مثل جبل نفوسة وجهة اليهود الفارين من اضطهاد المسيحيين في الأندلس في نهاية القرن 8هـ / القرن 14م⁽³⁾.

يظهر بجلاء أن الرخاء الاقتصادي هو أول أسباب الجذب بينما يمثل اضطراب الأمن أكثر أسباب دفع النفوسيين خارج جبلهم.

(1) الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، ط2، ج2، ص 105.

(2) ليفيتسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، ترجمة أحمد بومزقو وتقديم موحد ومادي، الجزء الأول، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، سلسلة دراسات 1، سنة 2005، ص 58.

(3) برانشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، بيروت 1988، ج1، ص 433.

مثلت نفوسة عصبية الدولة الرستمية التي قامت عليها حيث يذكر الباروني أن في تولية الإمام عبد الرحمان بن رستم حضر ثلاثون عالما من نفوسة وطرابلس⁽¹⁾.

كما تظهر حكمة شيوخ نفوسة في اختيار عبد الرحمن بن رستم لإمامة الظهور لسابقتها في المذهب الأباضي فهو من حملة العلم الخمسة ولأنه والي أبي الخطاب على القيروان وخاصة لأن «عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمان رئيسا وناظرا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه»⁽²⁾، وذلك درءا لتفريق القبائل البربرية بعد اجتماعها.

عندما استنجد الإمام عبد الوهاب بنفوسة في حربه مع المعتزلة وقر له الجبل شيوخ الحكمة والتدبير فانتصروا انتصارا نسج حوله مؤرخو السير الأباضية أساطير وخوارق أبطالها أربعة شيوخ من نفوسة: «وروي انه لما ضاق على الإمام عبد الوهاب احتجاج - بل - احتجاج المعتزلة في حربه معهم أرسل إلى هذا الجبل جبل نفوسة أن ابعثوا لي منكم أربعمئة رجل ويكون فيهم من يقوم بالمبارزة ومن يفسر القرآن ومن يقوم بالاحتجاج ومن يقوم بفقه الحلال والحرام وقيل مائة مفسر للقرآن ومائة مناظر في أصول الدين ومائة مبارز في القتال ومائة فقيه في الحلال والحرام فتواعدوا على الاجتماع في بلدة تالا ولما اجتمعوا وعلموا بمراد الإمام قال لهم العلامة الكبير مهدي النفوسي المتكلم:

انا ضامن أن أغلب من أراد أن يحاججني في هذا الدين من باب لقت إلى فاس، وقال أبو المنيب بن يانس: وأنا أكفيكم على الحلال والحرام وقال أبو الحسن الابدلاني المفسر: وأنا أكفيكم تفسير القرآن الكريم وقال لهم أيوب بن العباس الشجاع: لا أعلم فارسا أقوى مني من مصر إلى فاس، فاستغنوا بهؤلاء الأربعة عن الأربعمئة فارس ووجهوهم إلى الإمام فساروا»⁽¹⁾.

عملت المصادر الأباضية على تلميع صورة المجتمع النفوسي والإعلاء من قيمة قاداته خلال العهد الرستمي وفي هذا الصدد يتبع كتاب السير المنطق المذهبي وكذلك الإقليمي أي الرفع من شأن قادة المذهب الأباضي من المغاربة حتى ولو كان ذلك على حساب المشاركة أصحاب المذهب الأصليين وهو ما قد يقودنا إلى صراع خفي بين المحلي والوافد، «وروي أن جماعة من أهل الجبل فيهم مهدي الويغوي وغيره من خيار نفوسة قدموا على عبد الوهاب في خيمهم وأعجب بهم مما اتوا من العلم والورع فقال لهم هل تركتم في الجبل خيرا منكم فاجمعوا أنهم لم يتركوا في الجبل خيرا من هذه الجماعة إلا مهدي فانه قال له تركنا من هو خير منا أبو عبيدة عبد الحميد من أهل اجناون»⁽²⁾.

اتبع النفوسيون منطق الإمارة فقد كانوا بناءا للسلطة الرستمية فلولا سيوف نفوسة لما قامت هذه الإمارة فقد بلغ شيوخ نفوسة مبلغا عظيما

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 90.

(2) البغطوري (مقرين)، روايات الأشياخ، أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري، تحقيق عمر بن لقمان أبو عصبانة، مكتبة خزائن الآثار، عمان 2017، ص 252.

(1) الباروني (عبد الله)، نفسه، ص 44.

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر و إبراهيم بحاز، الجزائر 1985، ص 26.

لدى الرستميين ممّا وفر للإمارة الإطارات العليا لتسيير الإدارة على بساطتها فمن نفوسة كان القاضي والمحتسب والوالي والعامل⁽¹⁾.

ورغم المسافة الكبيرة الفاصلة بين تاهرت وجبل نفوسة، فقد ظل النفوسيون رعايا أوفياء للإمارة الرستمية طيلة عهدها ولم تصبح تبعيتهم لها اسمية إلا بعد هزيمة مانوا، خلافا لما ذهب إليه اسماعيل عبد الرازق الذي يقول: «كثيرا ما انسلخ عن تاهرت بعض هذه الجهات مثل جبل نفوسة ونفزاوة وجربة وطرابلس»⁽²⁾ ويعود هذا الوفاء إلى الإيمان بالمشروع السياسي الأباضي والدور الرئيس والمؤسس لنفوسة الجبل في قيام الإمارة الرستمية.

أجمعت المصادر الأباضية على مكانة أهل الحل والعقد ودورهم في تسمية الإمام وتقديم بيعة الخاصة له، حيث قال الباروني: «وبعد وفاة الإمام أفلح رحمه الله اجتمع حسب العادة أهل الحل والعقد من نفوسة ومن غيرهم ممن انتخبوه من العلماء والوجهاء وعقدوا الإمامة لإبنه أبي بكر»⁽³⁾.

(1) مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى المغرب (21 - 442 هـ) (642 - 1053 م)، الجزائر، مؤسسة تاوالت الثقافية 2003، ص 131.

(2) عبد الرازق (محمود إسماعيل)، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط2، المغرب 1985، ص 154.

يصح الانفصال عن تاهرت بالنسبة إلى جبل دمر الذي بايع عند مرور الإمام عبد الوهاب وكذلك طرابلس وهو ما دعا الإمام لمحاصرتها في محاولة بائسة لإعادتها إلى حضيرة الإمارة الرستمية وانتهى الحصار بعقد اتفاق مع الأغلبية لاقتسام النفوذ على المنطقة.

(3) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية عد14041-دد، ص 222.

ومن الأدلة على صلاح نفوسة ما قاله الدرجيني: «حدث غير واحد من أصحابنا أن نفوسة كانوا أطوع رعايا بالدولة الرستمية وأكثرها عونا على الخير وأشدّها بأسا في النصر على الأعداء وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله: إنما قام الدين بسيوف نفوسة وأموال مزانة واشتهر الصيت على نفوسة حتى اشتهر في بلاد الشرق»⁽¹⁾.

كانت نفوسة هي الساندة لإمامة الرستميين وهي التي تفرض رأيها وتحافظ على التوريث وتضمن استمرار الإمامة في البيت الرستمي، رغم معارضة جمهور واسع من العلماء وانتهاك مبدأ رئيس في الفكر الإباضي وهو الشورى، حيث يقول ابن الصغير: «... كان عبد العزيز بن الأوز ينادي بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم ليختاروا من هو أئق وأرضى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالته»⁽²⁾.

كانت نفوسة تختار القاضي وتشرف على بيت مال الدولة الرستمية وتعين المحتسب الذي يجوب الأسواق والطرق لتقويم المعوج والضرب على يد المفسد، يقول ابن الصغير: «ثم ولي على بيت ماله رجلا من نفوسة ثم قدم على منبره من ارتضاه هو بنفسه، ثم أمر قوما من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، قالوا، فإن رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمرها صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قدرا في الطريق أمرها من حول الموضع أن يكنسه»⁽³⁾.

(1) الدرجيني (أبو العباس أحمد)، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1 ص 87.

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر 1985، ص 61. أنظر أيضا: الباروني (عبد الله)، نفسه، ص 223.

(3) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز،

كما كانت نفوسة تختار واليها الذي يحكم كامل حيز طرابلس الساحل والجبل، يقول الورجلاني: «اجتمع إليه جوامع أهل طرابلس وطالبوه أن يولي عليهم رجلا فأراد الإمام تولية بعض وزرائه عليهم ولم يحبوا ذلك وأرادوا أن يولي عليهم وزيره السمع بن عبد الأعلى ... فقبل ذلك»⁽¹⁾.

عند تولي أفلق بن عبد الوهاب، فرضت نفوسة رأيها في تولية قاض رغم اعتراض الإمام وهو دليل على قوة نفوسة في مقابل تراجع تاهرت: «وكان أول ما امتحنه الشراة أن قاضيا من قضاة أبيه مات في أيامه فاجتمعت إليه وسألوه أن يولي القضاء من يستحق ذلك، فقال لهم أجمعوا جمعكم وقدموا خيركم، ثم أعلموني به أجيزه لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم، فقبلوا أمرهم فلم يرضوا أحدا منهم واجمع رأيهم على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس، فأتوا إلى أفلق بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتض أحدا منا وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل أوراس لخاصتنا وعامتنا وديننا ودينانا، فقال أفلق وبحكم دعوتكم إلى رجل كما وصفتكم في ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه»⁽²⁾.

الجزائر 1985، ص 77. أنظر أيضا: البرادي (أبو القاسم)، الجواهر المنتقاة، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية، عدد 22520.

(1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 118.

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر و إبراهيم بحاز، الجزائر 1986، ص 49.

لما افتقرت الأباضية في عهد عبد الوهاب وأصبح لكل فرقة اسمها سمي النفوسيون «العسكرية»⁽¹⁾، وذلك تبعا لدورهم فقد كانت نفوسة المساند الأول للعائلة الرستمية.

كما اتبع النفوسيون طيلة عهد الرستميين الموقف الرسمي ورفضوا الانشقاقات التي دبت في الجسد الأباضي من ابن فندين إلى خلف بن السمع إلى نفاث بن نصر إلى ابن عرفة وأيدوا الأسرة الرستمية رغم ما في ذلك من مخالفة صريحة لمبدأ «الديمقراطية» لدى الخوارج، فقد كان الشيوخ يسمون المخالفين بالنكار والنجوية والحشوية وغيرها، حيث يسمي الورجلاني الذين خرجوا عن عبد الوهاب بن رستم مثل ابن فندين «بالنكار» و«النجوية» و«الشغبية» و«الملحدة» و«النكاث»⁽²⁾.

كما تعزز موقف النفوسيين بتمسك أهل المشرق - رغم تردددهم في بداية الأمر - بإمارة تاهرت ورفضوا الانشقاقات التي بدأت تدب في جسم الإمارة الفتية إبان ولاية عبد الوهاب، يقول أبو زكرياء الورجلاني: «وكان الربيع بن حبيب - رضي الله عنه - (إمام الأباضية بالمشرق) يقول في مجلسه: عبد الوهاب إمامنا وإمام المسلمين أجمعين»⁽³⁾.

كان جبل نفوسة من أهم ولايات الجبل فقد اختاره الإمام عبد الوهاب للإقامة فيه مدة طويلة حولي سبع سنوات، كما كان يتمتع بإدارة متكاملة تمثلت في وال مثل أبي منصور إلياس وقاض مثل عمرو بن فتح وله خاتم القضاء، قال الدرجيني: «قال (عمروس)

(1) ابن الصغير، نفسه، ص 38.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 93.

(3) الورجلاني (أبو زكرياء)، نفسه ص 97.

لإلياس إن لم تأذن لي بقتل ثلاثة فخذ خاتمك»⁽¹⁾. والمحتسب بجادو وقرأها وهي مركز اقتصادي كبير يأتيها التجار من كل مكان، فكان بالمدينة قاض يراقب الأسواق على غرار أبي يوسف وجدليش بن في «وكان أمر سوق جادو إليه»⁽²⁾.

كما كانت نفوسة تختار حاكمها وتراعي في اختيارها التوازنات القبلية والمناطقية، يقول الشماخي: «قال له ابن ومار: من ترى لنا ولنّفوسة من بعدك؟ قال: ما تجرّأ أن يسألني عن هذا أحد غيرك! قال: قد فعلت، فأخبرني! قال: أبو زكريا اللالوتي، يبلغ مثل ما أبلغ أو أكثر. ولكن منزله في الطرف. وأبو يعقوب البغطوري مثل ذلك، لكن نفوسة يأبون أن تتقدم قبيلته. ولكن عسى إن أراد [أبو داود] يفوّض [للحكم بعدي] يعني أبا داود سليمان بن أبي يحيى بن يوسف بن أبي محمد زيد الدرّفي. فلمّا مات، بلغت مقالته أبا داود، فقدمه»⁽³⁾.

كانت العامة تشارك في إدارة الأحوال في نفوسة، حيث يقول الورجلاني: «وبلغنا أن أبا الخطاب وسيم (عامل جبل نفوسة) عاتبتة نفوسة في أربعة أشياء: قالوا له: إنك التزمت الأمور ليقظان (آخر الأمراء الرستميين) وتغرم اليتامى والأرامل بالظلمة وتستفتي نكاريا وتقدم في الصلاة خلفيا»⁽⁴⁾.

- (1) الدرّجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 317.
- (2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 507.
- (3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ج 2 ص 489 و 490.
- (4) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 198.

أما الأتباع فكانوا عصا يضرب بها الشيوخ مخالفينهم، فقد كوّن النفوسيون جيشاً جراراً لمؤازرة أبي حاتم الملزوزي الذي استند إلى جبل نفوسة في محاربته للأمويين، ثم أبي الخطاب الذي أسس إمارة أباضية تمتد من القيروان إلى برقة، ثم قاتلوا إلى جانب الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان في مواجهة المنشقين مثل ابن فندين، كما كانوا سيفه الذي بواسطته حاصر طرابلس متخذاً الجبل قاعدة لحروبه وتمكن النفوسيون بفضل حكمتهم من عقد اتفاق مع الأغلبية يقضي باقتسام المجال بينهما فتكون الصحراء لهم والساحل للدولة الأغلبية⁽¹⁾، يقول محمد الطالبي: «وهكذا انتصرت الحكمة تحت تأثير الضرورة»⁽²⁾.

انتصر النفوسيون كذلك لعبد الحميد الجناوني وأبي منصور إلياس على خلف بن السمع وتصدوا لابن طولون في طرابلس ثم وقفوا إلى جانب الأمير أبي يقظان في فتنة ابن عرفة وانتصروا للدولة الرستمية.

في هذه الأثناء وفرّ النفوسيون الكوادر في المجالات المختلفة للدولة الرسمية فقد كان منهم شيوخ العلم والولاة والقضاة والمفتون والكتاب والمقدمون والمحتسبون والقادة العسكريون، يقول الباروني متحدّثاً عن ولاية السمع بن أبي الخطاب: «فأحسن السيرة فيهم واليهم السمع وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقط المهمة ومراكز العمران»⁽³⁾.

- (1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 159.
- (2) الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية، تعريب ومراجعة المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995، ص 182.
- (3) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع 14041 دد، ص 148.

كما تصدى بعض الشيوخ إلى ممارسات الأمراء الرستميين لأجل تقويمهم وهو ما زادهم حظوة ورفعة لديهم ولدى العامة من الناس.

إلى جانب المكانة الأدبية للشيوخ عند المجتمع النفوسي، فقد حرص جلهم على الحصول على مكانة اقتصادية مرموقة تجعلهم قادرين على مساعدة الأتباع ساعات العسرة والمحن، فقد كان الشيوخ يظهرون للناس في أحسن هيئة، والثراء باد عليهم ولا يرون في ذلك افتخارا بل يزيدهم عند الناس هبة ووقارا، وإما أبو القاسم البغطوري فقد أشرفت عليه حين أصابه الضرر، فزاره المشايخ يوما من الايام وقد تعمموا بعماثم حسنة وفي أصابعهم خواتم الفيروزج وثياب الطيقان من أعمال اليهوديات⁽¹⁾.

مقابل ذلك كله فقد غابت الحكمة عن الشيوخ عندما طرح الصدام مع الأغالبة في معركة مانوا التي كانت نتيجتها وبالا على الجبل، فبعد واقعة مانو لحق ابراهيم الثاني بالفلول النفوسية الهاربة ولم يمنعه تحصنهم بحصن لهم بالجبل وقتل منهم خلقا كثيرا وأسرى، ثم سارع إلى قنطرة وسبى منها 80 عالما، فكان ذلك سببا لانقراض دولة الرستميين، يقول الدرجيني: «فكان ما أبقتة من الضعف هذه الواقعة وما اتصل بها سببا لانقراض الدعوة وذلك لأن نفوسة كانوا أعمدتها قامت بقيامهم وانقطعت لانقطاعهم فلما ضعفوا انتهكت الحرمة واستفزت الإمامة حتى انقرضت»⁽²⁾.

لقد عارضت القيادة الرستمية هذه المعركة لذلك لن تسند الجبل بالرجال والعتاد وهو سبب انفصال الجبل عن تاهرت، يقول

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009 ج 2، ص 84.
(2) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 1 ص 90 - 91.

الورجلاني: «فأراد الخروج إليهم أفلح بن العباس فأبى له أصحابه ذلك وكان إذاك هو واليهام العام».

لقد حضرت الحكمة عند بعض الشيوخ النفوسيين خارج الجبل الذين عارضوا هذا الأمر لكن دون فائدة وهو رأي سعيد بن يونس عامل قنطرة الذي اعترض على محاربة الأغالبة حيث قال: «ولكني خفت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها، يعني بالبقرة الجبل وبالعجل قنطرة»⁽¹⁾، إلا أن الأغلبية كانت تؤيد الحرب وهو ما أسفر عن هزيمة نكراء كان سببا مباشرا في نهاية الدولة الرستمية على يد الفاطميين نهاية القرن 3 هـ / بداية القرن 10 م.

دخل الأباضية طور الكتمان بعد سقوط دولتهم في تاهرت فقد حافظوا على كيانهم الاجتماعي بواسطة رابطة ثقافية تقوم على المذهب الأباضي وعينوا الحاكم العام الذي يعوض الإمام في سائر أعماله، وكان أبو محمد عبد الله بن الخير أول حاكم للجبل بعد هزيمة مانوا وله مسجد مازال قائما بتين وانزيرف، بينما كان أبو القاسم البغطوري هو مفتي الجبل في هذا العهد⁽²⁾.

قبل النفوسيون بحكم العبيديين ثم انتفضوا سنة 310 هـ / 923 م وكان على رأسهم إمام الدفاع أبي يحيى زكريا الأرجاني وكان الأتباع في الموعد من أجل الصمود في وجه حصار المسودة ثم طرد عاملهم إلى طرابلس، ثم عاود علي بن سليمان الداعي الكرة على جبل نفوسة

(1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 156.
(2) مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى المغرب (21 - 442 هـ) (642 - 1053 م)، الجزائر، مؤسسة تاوالت الثقافية 2003، ص 141.

فحاصره سنة 311هـ / 924م « ودخل حصنهم وهدمه وقتل الرجال و سبى الذرية»⁽¹⁾.

تولى أبو زكريا يحيى الحكم منتصف القرن 4هـ / القرن 10م وما يحسب له أنه جتّب نفوسة الحرب مع الفاطميين ثم مع الزييريين⁽²⁾ وقد كان كاتبه أبا عبد الله محمد بن جنون الشروسي الذي تولى تحرير المراسلات بين الزييريين ونفوسة⁽³⁾، فتحسنت علاقة الجبل بالعبديين في زمن المعز لدين الفاطمي الذي أبدى إعجابه بالشيوخ الثلاثة أبي القاسم يزيد بن المخلد وأبي خزر يغلا بن زلتاف وأبي نوح سعيد بن زنگيل، حيث ينقل الدرجيني عن الخليفة الفاطمي قوله: «أما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله وأما يغلا فعالم ورع وأما سعيد بن زنگيل ففتى مجادل»⁽⁴⁾.

ورغم تطبيق مبدأ الشورى في أهل الحل والعقد بالجبل وتقديم العلماء والأتقياء، إلا أن الوراثة في الحكم بقيت قائمة فكم من حاكم خلفه ابنه في رئاسة نفوسة كما تم اعتماد مبدأ الوزن القبلي للمترشح لمنصب رئاسة الجبل، حيث صمد النظام القبلي رغم انتشار المذهب الإباضي في المجتمع، «وروي أن أبا زكريا قال له: بن وأمار من ترى لنفوسة بعدك يا شيخ فقال له الشيخ ما تجرأ أن يسألني عن هذا أحد غيرك فقال له قد فعلت إذا فقد سألتك فقال له أبو زكريا قد كان أبو زكريا اللالوتي يبلغ مثل ما أبلغ أو أكثر ولكن منزله في طريق حوزة

(1) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع 14041 دد، ص 297.

(2) مزهودي (مسعود)، نفسه ص 145.

(3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، بيروت، 2009، ج 2 ص 402، ج 3 ص 971.

(4) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج 1 ص 196.

نفوسة وكان أبو يعقوب البغطوري يبلغ مثل ما أبلغ أو أكثر ولكن قبيلته لا ترضى بها نفوسة»⁽¹⁾.

تجلت الحكمة كذلك في عدم المشاركة في ثورة النكارية بقيادة صاحب الحمار أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى بعد أن أذاقهم المسودة صنوف التنكيل في بداية القرن 4هـ / القرن 10م، كما تمكن مشايخ نفوسة ومنهم أبو يحيى الفرستائي من إقامة نظام العزابة وهو نظام اجتماعي تربوي في بداية القرن 5هـ / القرن 11م، حفظ المجتمع النفوسي رذها من الزمن، وأعاد توحيد جبل نفوسة تحت سلطة حاكم واحد بعد انقسامه في بداية القرن 4هـ / القرن 10م.

يمثل القرن 5هـ / القرن 11م الذي تزامن وصول الهلاليين فترة انتقال إلى عصر أكثر سوءا، لقد تقهقر دور شيوخ الإباضية وهو ما جعل عددا منهم يتذمرون من الأوضاع وأورد لنا الوسياني في مصنفه السير بعض الشهادات الدالة على تبرم هؤلاء المشايخ ومن ذلك نعت مجتمع القرن 5هـ / القرن 11م بأنه قرن السائبة حيث يقول أبو بكر الزواغي: «ولكن زماننا سائبة لتضييع الناس القيام بالحق»⁽²⁾ وهي كناية على الفوضى وانهايار الأحوال الأمنية وتدهور العمران وتوسع البداوة التي تعززت مظاهرها عند دخول الهلاليين إلى إفريقية، فيقول كرامة المزاتي: «هذا زمان السكوت وأكل القوت ولزوم البيوت حتى

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 76.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 305.

تموت»⁽¹⁾، ويصل الوصف منتهاه عند الشيخ أبي محمد ويسلان بن أبي صالح حيث يقول: «ما مرّ على هذا الدّين قطّ شر من هذا الزمان»⁽²⁾.

رغم كل ما تقدّم وأمام الضرورة استطاع شيوخ نفوسة استعادة موقعهم القيادي وذلك بإبداع نظام العزابة لتأطير المجتمع النفوسي.

شكل عدد 2: ولاية جبل نفوسة خلال العصر الوسيط:

اسم الوالي	الفترة التاريخية	المجال الجغرافي
الإمارة الرسمية		
السمح بن الخطاب	إمامة عبد الوهاب بن رستم	كامل جبل نفوسة
خلف بن السمع	إمامة عبد الوهاب	كامل جبل نفوسة
أبو الحسن أيوب بن العباس	إمامة عبد الوهاب	كامل جبل نفوسة
أبو عبيد عبد الحميد الجنّا وني	إمامة عبد الوهاب	جبل نفوسة بأستثناء تيمتي
العباس بن أيوب	إمامة أفلح	
أبو منصور إلياس	إمامة يقطان	
أفلح بن عباس	إمامة يقطان	
الخلافة الفاطمية		
أفلح بن العباس	من نهاية القرن 3هـ / بداية القرن 10م	كامل جبل نفوسة
أبو محمد عبد الله بن الخير		كامل جبل نفوسة
أبو يحيى الأرجاني		كامل جبل نفوسة

(1) الوسياني، نفسه، ج1 ص 399.

(2) الوسياني، نفسه، ج1 ص 512.

اسم الوالي	الفترة التاريخية	المجال الجغرافي
أبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس		كامل جبل نفوسة
أبو زكرياء يحيى الأرجاني		كامل جبل نفوسة
أبو عبد الله منصور إلياس		
أبو زكرياء أبو عبد الله		
أبو موسى عيسى		
أبو هارون موسى		
سليمان التندميري		
أبو عمر الشروسي		
أبو عبد الله جلداسن		لالوت
أبو زكرياء يحيى		لالوت
أبو يحيى ماطوس		شروس
أبو الشعثاء		شروس
أبو معروف الشروسي		شروس
أبو محمد زيد بن أفصيت الدرفي		جادو
أبو يحيى يوسف		جادو
أبو عبد الله الأكبر		ويغو
أبو عبد الله أبو داود		بنو زمور
من نهاية القرن 5هـ / القرن 11م إلى منتصف القرن 8هـ / القرن 14م		
أبو الربيع سليمان الباروني		جبل نفوسة
أبو الفضل مسهل		
أبو زكرياء يحيى الباروني		
أبو عبد الله الباروني		

اسم الوالي	الفترة التاريخية	المجال الجغرافي
أبو منصور الباروني		
أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم الباروني		
أبو زكرياء يحيى الباروني		جبل نفوسة

2 - نفوسة القبيلة المقاتلة:

تعدّ قبيلة نفوسة من القبائل ذات الشوكة منذ العصر الروماني حيث قامت هذه القبيلة بانجاز الاتحاد القبلي الذي يمتن قوتها ويقوي شوكتها وبرزت هذه القوة خاصة في بداية القرن 2هـ / القرن 8م، حيث قاد المعارضة البربرية رجل من نفوسة هو اسماعيل بن زياد النفوسي لبدء تدريجيا تحول قيادة الاتحاد القبلي البربري بجهة طرابلس من هواراة إلى نفوسة، يقول ابن خلدون: «ثم ثار اسماعيل بن زياد ... سنة خمس وثلاثين ومائة»⁽¹⁾.

آزرت نفوسة أبي حاتم الملزوزي، فبعد تقهقر النفوسيين وهروبهم من طرابلس، اتخذ أبو حاتم الملزوزي وهو إمام دفاع جبل نفوسة قاعدة انطلاق لغزواته ضد ولاية العباسيين، ثم استولى على طرابلس يقول الوردجاني: «وحدث غير واحد من أصحابنا أن أبا حاتم يعقوب بن لبيد الملزوزي ولي مدينة طرابلس في رجب سنة خمس وأربعين ومائة ومكث فيها أربع سنين وكانت ولايته ولاية دفاع وطلب الحق وكان يرسل ما جمع من الصدقات للإمام عبد الرحمن بن رستم قبل أن

(1) ابن خلدون، العبر، بيروت 2000، ج6، ص 146. أنظر كذلك، حسن (محمد)، «حول إحدى القبائل البربرية نفوسة»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 10، سنة 1984، ص 159.

يتولى عبد الرحمن ولاية الظهور»⁽¹⁾، حيث «اجتمعت نفوسة وهواراة وجريشة لأبي حاتم لقتال جيش العباسيين ويقول الوردجاني أن فصيلا من هواراة من حيز طرابلس قد انضم لجيش العباسيين بقيادة يزيد بن حاتم»⁽²⁾ وقد أحرز أبو حاتم انتصارات كبيرة بفضل مؤازرة نفوسة له، يقول الوردجاني: «وقد دخل أبو حاتم، رحمه الله، مدينة طرابلس مع هزيمتهم فأقام ما شاء الله ثم نادى بالخروج إلى إفريقية»⁽³⁾.

كما كانت نفوسة عماد جيش أبي الخطاب، يقول الوردجاني: «اجتمع لأبي الخطاب شيوخ البربر من نفوسة وهواراة وجريشة»⁽⁴⁾ وقد اجتمع لأبي الخطاب حوالي 70 ألف مقاتل لقتال محمد بن الأشعث لكن عند تمويه هذا الأخير بالانسحاب والتراجع ذهب معظم جيش أبي الخطاب لمزاولة الأعمال الفلاحية وكان وقت حصاد وكان قد شارك معه في الحرب القبائل القريبة من طرابلس وهي نفوسة وهواراة وجريشة وجرت المعركة بموقع يقال له تاورغا قرب طرابلس⁽⁵⁾، قد مكث أبو الخطاب حاكما أربع سنوات وهو إمام ظهور «وكانت ولاية أبي الخطاب أربع سنين» من 140هـ إلى 144هـ⁽⁶⁾.

وكان لنفوسة الدور الحاسم في بناء الدولة الرستمية وحمائتها بالسلاح طيلة حياتها في مواجهة المعتدين والمنشقين يقول ابن خلدون: «وجأجا هواراة بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم

- (1) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 73.
- (2) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 79.
- (3) الوردجاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 75.
- (4) الوردجاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 58.
- (5) الوردجاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 68.
- (6) الوردجاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 59.

بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه بالقيروان، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم⁽¹⁾.

وبواسطة بسيف نفوسة استعاد الإمام عبد الوهاب السيطرة على شرق إفريقية مثل جبل دمر ثم قاد غزوات على طرابلس أثمرت اتفاقا على تقاسم المجال مع الأغلبية، «وبلغنا أن الإمام (عبد الوهاب) لما حاصر مدينة طرابلس نزلت معه نفوسة»⁽²⁾.

لما افترقت الأباضية في عهد عبد الوهاب وأصبح لكل فرقة اسمها سمي النفوسيون بـ«العسكرية»⁽³⁾ وهو لعمرى ليست خطأ فكريا داخل الأباضية وإنما تبعا للدور العسكري الذي قامت به نفوسة فهي عماد الدولة الرستمية ومنع قوتها، قال الورجلاني: «حدث غير واحد من أصحابنا أن نفوسة بلغت من التأيد لسلطان الرستميين بأرض تاهرت مبلغا عظيما لم يبلغه غيرهم في مغربنا هذا فلذلك قال الإمام: إنما قام هذا الدين بسيف نفوسة وأموال مزانة»⁽⁴⁾ وهو ما يؤيده كلام الدرجيني

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 185. يرى محمد الطالبي أن هذه المعركة انتهت بلا نصر لكلا الطرفين ودليل ذلك الاتفاق الذي أنجز على اقتسام المجال وهو العودة إلى الوضع السابق. أنظر: الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية، تعريب ومراجعة المنجي الصبادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995، ص 181.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 102.

(3) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر و إبراهيم بحاز، الجزائر 1986، ص 38.

(4) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 154 و 155. و الهامش ص 110، وفيه تعريف بالسيف البربري: تدل الأوصاف التي وصلت إلينا للسيف الذي كان البربر يستعملونه في العصور الوسطى أنه كان

حيث قال: «حدث غير واحد من أصحابنا أن نفوسة كانوا أطوع رعايا بالدولة الرستمية وأكثرها عونا على الخير وأشدّها بأسا في النصر على الأعداء وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله: إنما قام هذا الدين بسيف نفوسة وأموال مزانة وانشهر الصيت على نفوسة حتى اشتهرت في بلاد المشرق»⁽¹⁾.

تتفق المصادر العربية على كثرة رجال نفوسة المحاربين فيقول البكري: «وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه ويجتمع فيما حوله من القبائل إذا تداعوا ستة عشر ألف رجل»⁽²⁾، فكان الجبل سندا قويا للدولة الرستمية ومصدرا للجند مع ما جلبه الرستميون من جنود صقالبة⁽³⁾ أيضا ويمكن القول إن الدولة الرستمية هي دولة نفوسة بامتياز.

لقد كانت نفوسة تفرض رؤيتها وتحافظ على التورث وتضمن استمرار الحكم في البيت الرستمي حيث يقول ابن الصغير: «كان عبد العزيز بن الإوز ينادي بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم

طويلا ومستقيما وذا حدين وهو يشبه إلى حد بعيد السيف التوارقي المشهور ويتميز بصغر المقبض وهو يذكر بالصلب ولا علاقة له بالمسيحية والنوع الثاني هو السيف ذو الحد الواحد ولا أثر للصلب فيه.

(1) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1، ص 87.

(2) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، ج 2 ص 655 و 656.

(3) مفتاح (معيوف صالح)، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من منتصف القرن الثاني هجري إلى أواخر القرن الثالث هجري)، مؤسسة تاوالت الثقافية 2006 ص 28.

ليختاروا من هو أرقى وأرضى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالته»⁽¹⁾.

كما أنقذت نفوسة إمارة الرستميين في عديد المعارك الداخلية والخارجية، فقد استنجد الإمام عبد الوهاب بنفوسة في حربه مع المعتزلة⁽²⁾، فاكتفى المشايخ بإرسال أربعة علماء بدل أربعمائة وهم مهدي النفوسي وأبو منيب بن يانس وأبو الحسن الأبدلاني وأيوب بن العباس ورغم تكرّر هذا الخبر لدى جل المصادر الإباضية فإن ذلك لا يمكن أن يحجب البعد الأسطوري.

كما استجار أبو يقظان الأمير الرستمي بسيف نفوسة في حربه الداخلية ليثبت أركان حكمه، قال ابن الصغير: «وأن أبا يقظان لما رأى من طول الحرب ما رأى كتب إلى جبل نفوسة يستفزهم ... جددوا له البيعة وعقدوها له وأنه لما نزلت بأبي يقظان اجتمع لأبي يقظان جمع عظيم فرحل بجميع جموعه من نفوسة وغيرها حتى نزل من المغرب من مدينة تاهرت فلما نزل منزله قالت نفوسة لا نقاتل حتى نرسل لإخواننا فنذرهم فإن جاؤوا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة وإن أبوا من ذلك نزلنا معهم على حكم الله»⁽³⁾.

لقد أثبت النفوسيون بسالة في الحرب حتى أنهم كانوا يقيدون أرجلهم ليثبتوا في القتال ولا يتولوا عند الزحف حيث يقول ابن

الصغير: «ثم كانت وقعة تعرف بيوم الرد المعوج، فيما ذكر، أن نفوسة فروا بعضها على بعض وقال بعضهم كيف يجوز لنا الفرار من الزحف قالوا فما وجه الرأي قالوا الرأي أن نضم رجل بعضنا إلى بعض بحبال ونثبت للحرب فكلما دارت إلى ناحية درنا معها بوجوهنا ولا نبرح أمكنتنا حتى يقطع السيوف في هاماتنا فكان في ذلك اليوم قتال لم يتقدم قبله قتال مثله»⁽¹⁾، كما قال الأمير الرستمي أيضا: «قد يكبو الجواد وإلا فإن لنفوسة الثبات في الحرب»⁽²⁾.

تميز شيوخ نفوسة بكثير من الشجاعة حتى في وجه الإمام عبد الوهاب الذي عرفت معه الإمارة الرستمية أوجها فإن النفوسيين لا يرضون الاعتداء، فلما قدم الإمام عبد الوهاب إلى نفوسة ونزل في اذرف وأطلق أهل عسكره مواشيهم في الأصل فكان الفساد منهم فاتاه أبو عبيدة فقال له أن أصحابك أطلقوا في الأصل فكان الفساد منهم فان لم تعلم فقد أعلمناك فان علمت وتركت فليس بيننا وبينك إلا هذا وضرب على قائم سيفه بيده وكان الإمام متكئا فقعد على نفسه صدق والله مهدي قالها ثلاثا»⁽³⁾. يعود ذلك يقينا إلى معرفة شيوخ نفوسة بمكانتهم في الإمارة وكذلك إلى رواسب النظام القبلي التي مازالت حية في سلوك النفوسيين. كان لنفوسة شأنا عظيما في تاهرت وهيبة عند الناس لقوة شوكتهم، حيث أن أفلح إمام تاهرت «أمر قوما من نفوسة يمشون في الأسواق يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر»⁽⁴⁾.

(1) ابن الصغير، نفسه، ص 72.

(2) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041 دد، ص 133.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ص 101-102.

(4) البرادي (أبو القاسم)، الجواهر المنتقاة، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية، عدد 22520 ع8.

(1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر 1985، ص 61. أنظر أيضا: الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041 دد، ص 223.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ص 90.

(3) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق و تعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت 1986، ص 75.

خاضت نفوسة عدّة معارك حاسمة على مستوى الإمارة الرستمية وكذلك عدة معارك مهمة على مستوى جبل نفوسة، فقد مثل الجبل أهم ولايات الإمارة الرستمية وأبرز معاقل الأباضية وذلك بفضل أهمية المجتمع النفوسي الذي استطاع بالسلاح حماية نفسه من الاختراق الذي قادته الانشقاقات والاعتداءات من خارج الجبل ورفض ولاية الجبل مثل أبي عبيدة وغيره دعوات استقلال الجبل عن الإمارة الرستمية التي قادها خلف بن السمح رغم انحياز عدد كبير من نفوسة إلى جانب خلف لأهمية منطقته فلاحيا⁽¹⁾، فحقق أبو عبيدة عدة انتصارات على النكار دون القضاء عليهم «وقيل أن رجلا من أصحاب أبي عبيدة رما رجلا من أصحاب خلف بمزراق فخرج المزراق من الرجل وركز وراءه فجعلوا هناك مصلى وهو إلى يومنا هذا معروف قال فهزم الله خلفا وأصحابه وأسرع القتل فيهم فأتبعهم أبو عبيدة في ساحتهم حتى لحقوا مقرهم تيمتي فرجعت نفوسة من أصحاب خلف وغيرهم ممن أتبعه تائبين إلى أبي عبيدة فكل من أتى الأمر الشنيع منهم بجهل وقلة فهم قبل توبته وقبل عذره وعفا عنه»⁽²⁾.

(1) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع-14041 دد، ص 168.

أنظر كذلك: مفتاح (صالح معيوف)، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من نصف القرن الثاني هجري إلى أواخر القرن الثالث هجري)، مؤسسة تاوالت الثقافية 2006، ص 192-193. يذكر مؤرخو الأباضية أن العامل الاقتصادي كان حاسما في انضمام الناس إلى خلف ويخفون صوابية موقفه الذي يركز على حق سكان الجبل تعيين الوالي وكذلك على الاستقلال نظرا لبعد المسافة عن تاهرت وإمكانية وجود إمامين في آن واحد طبقا لتعاليم المذهب الأباضي. أنظر: عبد الرازق (محمود اسماعيل)، الخوارخ في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط2، المغرب 1985، ص 164.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ص 130.

لم يتمكن الوالي أبو عبيدة الجنائوني - خلافا لما ذهب إليه كتب السير الأباضية- من القضاء على انشقاق خلف، بينما حقق العباس بن أيوب والي الرستميين النصر النهائي⁽¹⁾ وقد أدى هذا النصر إلى إفشال محاولة فصل وطن يفرن عن جبل نفوسة وهي حركة زناتية قامت بتبني الدعوة الخلفية، بدأت فقهية ثم تحولت قبلية، ليعود مجال جبل نفوسة إلى مساحته التي كان عليها مع بداية عهد الدولة الرستمية⁽²⁾.

كما تتبع سيف نفوسة المنشق الطيب بن خلف بن السمح إلى أطراف جربة وقضى عليه، يقول الوردجاني: «سار المنصور ومن معه من نفوسة فلما وصل إلى أريصة قرب طرابلس وجد بها جماعة زواغة وقد اتحدوا على ولد خلف وأرادوا منعه من أبي منصور فتكلم شيخ كبير من شيوخ بني يهراسن يقال له أبو سلمة وقال: يا معشر زواغة هل لكم في ثلاث أن تفعلوا واحدة منهن، الأولى أن تدعوا تربة أريصة و تدخلوا جربة وتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم والثانية أن ترسلوا إلى تاهرت أن يستعمل عليكم عاملا فتخرجوا من طاعة نفوسة، والذل لهم، والثالثة أن تدفعوا إلي ولد خلف لأسير به إلى نفوسة»⁽³⁾ وانتهت المعركة بانتصار كاسح لنفوسة ووأد فتنة ابن خلف.

هرعت نفوسة بسيفها لنجدة الشيخ أبي مسور اليراسني في جربة من النكارية: «فلم يكن إلا هنيهة إذا بكتاب ثالث من جبل نفوسة فيه

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 59-60.

(2) بن حسن (محمد)، القبائل و الرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس 1986، ص 135.

(3) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة و أخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، 151. أريصة هي ذاتها ريصوة وزيزوا وهي جزيرة غمرتها مياه بحيرة البيبان بين جرجيس وبن قردان بالجنوب الشرقي التونسي.

ما في الأولين إلا أنهم قالوا: إن صح ذلك فأخبرنا نكسر الغمد نأتيك
والسيوف مسلطات»⁽¹⁾.

وقد كان لنفوسة بحكم أنها قبيلة مقاتلة عدة صولات مع البدو
والمسودة: «وروي عن أبي الفضل انه وجد نفوسة في ذل من أهل
البادية وكان حاكما ذا نصره على الأعداء وقد وجد نفسه يرد ويقاقل
واحد من زناته وغيرهم من المسودة (يقصد صنهاجة) عشرة من نفوسة
في القتال فلم يزل أبو الفضل في إعزاز نفوسه حتى جعلها الواحد منها
برد عشرة من المسودة وهو الذي رفع جورهم عن نفوسة»⁽²⁾.

نجد هذا الخبر عند ابن عذاري حيث يقول: «وفيها خالفت نفوسة
على عبيد الله وقدموا على أنفسهم أبا بطة فاجتمع إليه عدد كثير واشتدت
شوكته. فأخرج إليهم عبيد الله علي بن سلمان الداعي في جمع كثير
فلما قرب منهم بيتوه فقتلوا من أصحابه وانهزم الباقيون وتفرقوا عن علي
بن سلمان، فسار علي إلى طرابلس، وكتب إلى عبيد الله بذلك فكتب
عبيد الله إلى علي بن لقمان عامله على قابس بأن يقتل كل من مر به
من المنهزمين فقتل منهم جماعة. وامتد عبيد الله بن سلمان بالجيش،
وأخذ في حصار نفوسة بعزم»⁽³⁾. ثم عاود العبيديون الكرّة على نفوسة،
يقول ابن عذاري: «وفيها أوقع علي بن أبي سلمان بأهل نفوسة ودخل
حصنهم وهدمه وقتل الرجال وسبى الذرية»⁽⁴⁾.

(1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1
ص 281.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني،
ط1، تاوالت، المغرب 2009 ص 78.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان
وبروفنس، ط3، بيروت 1983، ج1، ص 187.

(4) ابن عذاري، نفسه ج1، ص 188.

ورغم كثرة الحروب التي خاضها النفوسيين إلا أن أخلاقهم في
الحرب كانت معروفة، فقد اشتهروا بالتعفف عن أخذ غنائم الحرب
إلا السيوف وهو ما تشهد به المصادر العربية غير الأباضية، حيث
يقول ابن عذاري: «وركب العباس بن طولون أثره حتى نزل إطرابلس
منصب عليها المجانيق وناصبهم الحرب. وأقام محاصرا لهم ثلاثة
وأربعين يوما فتعدى بعضهم سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا
الستر فاستغاث أهل إطرابلس بأبي منصور صاحب نفوسة فقام متحسبا
وناصريا جيرانه من المسلمين وزحف في اثنا عشرة ألفا من رجال نفوسة
إلى العباس بن أحمد بن طولون فناشبو الحرب فقال العباس لأبي عبد
الله الكاتب» ما الرأي؟ «فقال له» ببرقة خلّفته «! وألح أهل نفوسة في
محاربة ابن طولون فأنهزم وخرج إلى برقة بعد انتهاب أهل إطرابلس
لجميع عسكره. ولم يتلبس النفوسيون منه بشيء بل تورعوا عنه»⁽¹⁾
وكذلك يقول الشماخي: «فهزم الله ابن طولون وقتل أكثر أصحابه
ولم يأخذ من أموال ابن طولون شيئا تورعوا عنها وزهدا في الدنيا»⁽²⁾.
وهو حال أبي الخطاب بن السمح قبل ذلك، عند حصاره للقيروان فقد
عاقب أحد مساعديه الأثرياء لسلبه أحد القتلى، قال الشماخي: «فخرج
أهل المدينة (القيروان) إلى موضع القتلى، فإذا هم بشبابهم، لم يسلب
أحد منهم، فقالت امرأة: كأنهم رقود، فسمي الموضع: رقادة إلى أيام
عبد العزيز بن أحمد، المكنى بأبي فارس، فسماه نبهانة على ما قيل.
وخرجوا إلى زروعهم، فإذا هي كما كانت، لم يقع فيها فساد ولا مضرة،
لا بالناس ولا بالمواشي. فتعجب الناس من عدل أبي الخطاب، وطاعة
أصحابه له. فتفقد، رحمه الله، القتلى فوجد واحدا منهم مسلوبا، فنأدى

(1) ابن عذاري، نفسه، ج1، ص 119.

(2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان،
2009، ج2 ص 365.

مناديه: من أخذ من القتلى شيئا، فليرده! فلما أيس، دعا ربه، - وكان مستجاب الدعاء - أن يفضحه على رؤوس الأشهاد. فركبوا خيلهم ليجروها، وانقطع حزام جميل السدراتي، فسقط وظهر السلب تحت سرجه. فأخذته الإمام وأدبه»⁽¹⁾.

وهو دأب أبي حاتم الملزوزي، حيث قال الدرجيني: «وبلغنا أن أبا حاتم لما هزم الله على يديه العدو وقد كان معه من عوام البربر من لا نظر له في أمور الدين وانما حضروا تسليما لأموال المسلمين فعمدوا إلى أسلاب القتلى فنزعوها عنهم، فغضب أبو حاتم لذلك، وقال ليس من سيرة المسلمين إذا اقتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد أن سلبوه بل يقولون لأهل المدينة إرجعوا إلى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم. والآن اما رددتم الأسلاب، واما اعتزلت أموركم، وتركت الولاية، فلما سمعوا ذلك منه أطاعوه وردوا أسلاب القتلى»⁽²⁾.

يجد هذا المبدأ تأصيله لدى مشايخ جبل نفوسة وهو حال الشيخ أبي عمرو الساساني الذي «روي عنه انه كان يفتي للناس في المجلس ومعه ابو مهاصر حتى سأله رجل عن مسألة نزلت في عسكر ابن طولون وانه اخذ من مال ابن طولون خرجا وتاب فلم يعرف له صاحبها فقال له تسأل عن مولاه فان لم تجده فلتتصدق به»⁽³⁾.

أدت الهزيمة في معركة مانوا ضد الأغالبة إلى انكسار شوكة نفوسة وإغماد سيفها عنوة فلم يعد يربط الجبل بإمارة الرستميين إلا وحدة

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، ليبيا، 2009، ج 2 ص 252-253.

(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1، ص 37 و 38.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009 ص 118.

المذهب، حيث لم يتجاوز سلطان تاهرت حدود العاصمة ولم يستطع النفوسيون على غير العادة ولأول مرة إنقاذ الدولة الرستمية من مصيرها المحتوم في مواجهة العبيديين.

قدّم النفوسيون عددا كبيرا من القتلى طيلة الحروب العديدة التي خاضوها خلال القرن 2 و 3 هـ / القرن 8 و 9 م وهو ما قد يفسر الهزيمة النكراء في مانوا ثم عدم القدرة على إسناد تاهرت وكذلك إفراغ الجبل من طاقاته وخبراته في القرون اللاحقة.

مرت نفوسة في قوتها العسكرية بمراحل ثلاث وهي طور النشأة ثم طور العنفوان والقوة ثم طور التراجع والإضمحلال، كما رافق هذه المراحل تطور من قبيلة مقاتلة تتحكم في مجال واسع بواسطة قوة سيفها إلى مجتمع في طور الانتقال نحو الاستقرار وكل ما يتصل بذلك من فقدان العصية بالمفهوم الخلدوني، كما أن ظروفًا هامة عديدة ساهمت في تراجع قوة نفوسة ونفوذها.

3 - مكانة المرأة النفوسية:

يتميّز المجتمع النفوسي بأهمية مكانة المرأة وتعود هذه المكانة إلى رواسب بقيت من المجتمعات البدائية الأمومية، حيث يذهب بعض الانثروبولوجيين إلى أن النظام الأمومي هو الوضع الأصلي للإنسانية⁽¹⁾.

تظهر هذه الخصائص أكثر جلاء في المجتمعات المجاورة قريبة النسب من النفوسيين، مثل المجتمع التارقي أو صنهاجة اللثام، فقد

(1) رايلي (ك.فين)، الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، ج 1، ترجمة عبد الوهاب السيري وهدي عبد السميع حجازي ومراجعة فؤاد زكري، ط 1، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1985، ص 40.

كانت المرأة تتمتع بالتبجيل والأفضلية والمكانة المهمة في مجتمع الملمثين، يقول النويري: «وكذلك جميع الملمثين ينقادون لأمر نسايم»⁽¹⁾.

يعود تبجيل المرأة إلى التقاليد البربرية ما قبل الإسلام، يقول باسي: «خلال حملة دو بيليزير ضد الوندال، التجأ المغاربة، خشية أن يلحقهم بعض الضرر، إلى تبشير النساء بعد بضعة احتفالات يتكهن بالمستقبل على غرار وسطاء الحي القدماء»⁽²⁾.

لأجل ذلك تحظى المرأة النفوسية بمكانة اجتماعية مرموقة وخاصة العجائز اللاتي يتربعن على هرم التراتب الاجتماعي النفوسي، حيث يورد البغطوري فئات المجتمع الأباضي والذي تصدر العجائز فيه المراتب العليا، يقول: «وروي أن العجائز هن خيم الإسلام وروي أن الماضين خافوا على احكامهم من مشائهم ومشائهم خافوا من عزابتهم وعزابتهم خافوا من عجائزهم»⁽³⁾.

بالإضافة إلى الرواسب الاجتماعية القديمة استطاعت المرأة النفوسية تدعيم مكانتها من خلال الأدوار المختلفة التي قامت بها والتي نافست فيها الرجال وخاصة المكانة العلمية في مجتمع يحتل فيه علماء الدين مكانة مرموقة.

اجتهدت المرأة النفوسية واستغلت ازدهار الحياة العلمية بالجبيل حتى تتفوق في مجال العلوم عامة والعلوم الدينية خاصة، فقد كانت

أم ربيع الوريورية: «أمة عابدة زاهدة تسعى وراء العلم ويزورها العلماء وكانت مأوى للأخيار وكهفا للأبرار»⁽¹⁾.

كانت نساء نفوسة يحضرن المجالس العلمية دون التخلي عن أدوارهن الحرفية حيث رخص لهن المشايخ حضور مجالس الذكر وهن يغزلن الصوف⁽²⁾، كما كانت النساء يقطعن المسافات لأجل التعلم وكنّ يبحثن عن المعلم الجيد، فكانت تمشي إلى أبي غلبون من أهل كزين وتتعلم عنده فلما رأت الشيخ كبر قالت له نحن النساء ضعفاء إذا رأينا الرجل يقرأ سطرين في الكتاب فنحسبه عالماً فعلى من تدلني بعدك أن عشت فقال لها: جيد الأيمان جيد النفس لا تفرط فيها»⁽³⁾.

نتيجة لهذا الاجتهاد في التحصيل، نبغ عدد من نساء نفوسة، فهذه أم يحيى تحفظ كتاباً من القراءة الأولى وتمليه على النساخ، وروي أن كتاب الخليل الصالح وقع في هذه البلاد عند رجل من أهل أمسين فطلبوا إليه نسخه، فأبى فتحيلت العجوز ذات مرة وأرسلت إليه فقالت اعرضه علي فقرأه عليها مرة واحدة فقالت لهم من أراد أن ينسخ فليكتب⁽⁴⁾ وهو كما يبدو مبالغة دأب عليها كتاب السير الأباضية، كما تذكر الروايات النفوسية أن امرأة في طريقها من جبل نفوسة إلى الحج تتحدث مع أحد الأندلسيين فتحفظ ثمانين بيتاً من الشعر من السماع الأول»⁽⁵⁾.

(1) الشماخي، السير، ص 300 و 310.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص. 63.

(3) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 53.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 55.

(5) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 54.

(1) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 24، ص 146.

(2) روني باسي، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة حمو بوشخار، المغرب 2012 ص 63.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ج2 ص 156.

أدت هذه المكانة العلمية التي استحققتها المرأة النفوسية إلى إنشاء الحلقات لتعليم البنات، مثل «مدرسة» أم يحيى بقرية إيفاطمان وغيرها حيث حولت الصالحة الأرملة أم يحيى بيتها إلى مدرسة للعزابة / الحلقة، «فسار أبو ميمون فاستشهد بمانور حمة الله عليه وبقيت أم يحيى بعده فصارت كهفا للإسلام ومأوى للأخيار فكان يجتمع عندها عزابة أهل أمسين في كل ليلة جمعة يتذاكرون ويحيون ليلتهم في العبادة»⁽¹⁾.

لقد أصبحت العجائز مركز التعلم في جبل نفوسة، ربما لاشتغال الرجال بالحروب وتسيير أمر الجبل، فقد كنّ عالمات يأخذ الناس عنهن دينهم، يقول الدرجيني: «انقلب علي بن يعقوب إلى جبل نفوسة ثم أراد الرجوع فمر بقرية خاملة الذكر فيها عجوز يجتمع إليها الناس يسألونها عن مسائل دينهم ولها مصلى تصلي فيه»⁽²⁾.

تحمل الروايات الأباضية عديد القصص التي تمدح قوّة العجائز النفوسيات حيث كان لهن رأي في أئمة الصلاة مثل أم يحيى زوجة أبي ميمون التي كانت تفصل الرجال غير مستحقي الإمامة عنها وهو دليل على المكانة الكبيرة للمرأة في جبل نفوسة: «وقيل عنها حين كانت في جليلة انه تقدم رجل مسن الجماعة ليصلي بهم وهو غير مستحق لذلك فقالت له أخرج من المحراب يا رجل سوء لئلا يأتيها من السماء أكثر مما يأتيك من الأرض فجذبته من المحراب فقالت ما مسكت حذري

تبدو القصة متأثرة بقصص أخرى مشابهة لها وافدة من الأدب العباسي مثل صوت صفيير البلبيل للأصمعي.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص55، 54.

(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج2 ص 378.

منه من يومنا ذلك النساء الصالحات ينتجن الحكمة وتروى عنهن⁽¹⁾ ورغم سعة علمهن وقوة سلطتهن، فقد كنّ متسامحات مع المذنبين التائبين.⁽²⁾

ورغم العلم الغزير لا يستنكف النفوسيات من الإفتاء بالعرف خاصة بين النساء في تجاهل للشرع ولأقوال المشايخ، «فقالت لها: يا نانا ما تقولين في امرأة رأت الطهر والدم الآن فمن أين تحسب فقالت لها من البارحة وإنما يقول المشايخ ما رأت قبل طلوع الشمس فتحسب من البارحة وما رأت بعد طلوع الشمس فتحسب من الليلة المقبلة»⁽³⁾ ونانا هو لقب يطلق على العجائز توقيرا وتقديرا لهن.

عززت الخصال المختلفة للمرأة النفوسية مكانتها السياسية حيث كانت المرأة عامة والعجائز خاصة يؤدين أدوارا كبيرة، فقد كانت العجائز يختبرن المترشحين لخطبة القضاء: «وذكر عنهم أنّهم أرادوا استقضاء رجل فقالت لهم عجوز ابعثوه لي فبعثوه إليها، فأخذت عجينا فعملته رغيفا فجعلته في المقلاة فخرجت عنه وتركت الرغيف في المقلاة والمقلاة على النار وترك الرغيف ولم يقلبه حتّى احترق فرجعت فوجدته قد احترق فقالت ليس بصاحبكم رجل متكبر مضجع أو معجاز مهين فتركوه ثم أرادوا آخر فأرسلوه إليها فجربته العجوز أيضا بما جربت به الأوّل فقام إلى الرغيف فجعل يقلبه حتّى نضج، فوجدت رغيفها نضجا فأخبرتهم بذلك فاستقضوه»⁽⁴⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص53-54.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص39.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص145.

(4) أبو الزبيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009، ج1، ص279-278.

كما أن العجائز مقدّمات في المكانة لدى الشيوخ والعلماء، فنجد أبو عبيدة الجنائزي يرفض أمر الإمام عبد الوهاب ويأخذ برأي عجوز، فقد قبل أبو عبيدة عبد الحميد الجنائزي الولاية على جبل نفوسة وبلاد طرابلس من حوله بعد استشارة «عجوز نفوسية مشهورة بالعلم والدين والصلاح» بعد أن رفض تولية الإمام عبد الوهاب له⁽¹⁾.

إلى جانب مكانتها العلمية والسياسية الكبيرة تحظى المرأة بمكانة اقتصادية أهلتها لتحسين نفسها وتدعيم مركزها، فقد عرفت عديد النساء استقلالاً مالياً، «وذكر أنّ رجلاً من قصر بكر قليل المال وامرأته موسعة كثيرة المال فسأل الرجل جنون إن كان يجد ويجوز لامرأته أن تدفع له زكاة مالها؟»⁽²⁾، كما كانت النساء الصالحات صاحبات المال يقمن مجالس الذكر ويحضرها الرجال وينفقن على الشيوخ المعوزين⁽³⁾.

وكانت الزوجة الصالحة تعمل في النسيج لخلاص ديون الشيخ: «قالت فوجدته وعليه أربعون ديناراً فقضهم كلها من عمل يديها وقيل عنها أنها تعمل عذيلة ثياب في سنتها»⁽⁴⁾.

كما كانت النساء يتعاون في النسيج وغيره وهو ما يدل على نمط الإنتاج العائلي ويسمى ذلك باللسان البربري «التويزة» و«الرهاطة»، يقول الفرستائي: «النساء إذا تسالفن الأيام للنسيج أو للغزل على هذا

(1) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1 ص 71.

(2) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009، ج 1، ص 435.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 42.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 53.

الحال ولا ينتظر في ذلك إلى قصر الأيام ولا لطولها، والمرجوع إليه في جميع ما ذكرنا إلى أخذ العناء»⁽¹⁾.

تحدث كتب الفقه الأباضي عن توريث البنت في جبل نفوسة حيث يقول عامر الشماخي: «الأخت إذا خرجت عن الإخوة بالتزويج، ثم أرادوا القسمة معها فادعت في الحيوان والعروض والحبوب سهمها، فإنها لا تلحق شيئاً إلا في الأصل إلا ما كان معروفاً من تركه الميت فيكون لها فيه سهمها»⁽²⁾، بينما يختلف الأمر في جبل دمر المتاخم حيث البربر لا يورثون البنت، يقول التجاني: «وهم ينتحلون مذهب النكارة من الخوارج البربر ولا يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم ولا يورثون البنت شيئاً من مال أبيها»⁽³⁾.

يظهر جلياً الاختلاف في تطبيق تعاليم الإسلام بين جبل نفوسة وجبل دمر ويعود هذا الاختلاف إلى تبني المذهب الأباضي الوهبي لدى النفوسيين بينما تبني الدمريون مذهب النكارة ويستنتج أن الإسلام قد أثر بعمق في المجتمع النفوسي بينما تغلبت التقاليد البربرية وصمدت في وجه التأثيرات الثقافية الوافدة من المشرق.

كما كان النفوسيون يتبركون بالعجائز الصالحات فيتخذوا بيوتهن مساجداً، «وروي انه (كان) يمشي إلى عجوز في ابنان يزورها فلما

(1) أبو العباس أحمد الفرستائي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكير بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997، ط 2، ص 91.

(2) الشماخي (أبو ساكن عامر)، كتاب الإيضاح، تحرير ودراسة محمد كمال الدين إمام، ط 1، سلطنة عمان 2011، ص 282.

(3) التجاني (أبو عبد الله)، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس 2005، ص 173. وقد تواصلت هذه الممارسة إلى الفترة المعاصرة، أنظر: الثابتي (علي)، العمارة بجبل دمر في المهددين الوسيط والحديث، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، تحت إشراف د. محمد حسن، تونس 2015-2016، ص 50.

رجعت الأمور إليه أعجبه المنزل فاختره لنفسه سكنا فبنى فيه مسجدا فصار كهفا ومأوى لأهل الإسلام»⁽¹⁾ وقد كانت الصبايا يزن الصالحة ويتبركن بها فتطوى الأرض بهن طيا استجابة لدعاء العجوز الصالحة زورع الأرجانية⁽²⁾.

وفي حياتهن كثيرا ما كانت العجائز مقصدا للتبرك، ثم اتخذت بعد ذلك مزارات تشد إليها الرحال في أيام معدودات وهو تقليد قبل إسلامي وإن غلفت بلبوس ديني⁽³⁾.

حملت لنا السير الإباضية عددا من أسماء النساء الصالحات المستجابات الدعاء، «أسماء العجائز الصالحات زورغ من اركان في زمان أبان وأم يحيى من تيمصليت واسيت من ويغو وأصيل من تيمصمص وسرغنيت زوج جمال من وريوري وأم حسنون من لالوت وصيدينت من تملوشايت وتوجينت وأم أمان من تارديت وأبوب من مصليوش»⁽⁴⁾.

وكثيرا ما يبدأ صلاح المرأة بتوبة الفجاءة، وهو حال أم يحيى وتكريما لها بني مسجد بعد وفاتها في مكان توبتها⁽⁵⁾.

يبدو أن صلاح نساء نفوسة وإجابة الدعاء قد تواصل من النصرانية إلى الإسلام، وروي أن امرأة من أهل تدينيت صالحة في أيام النصرانية قبل الإسلام حملت قفة من تين فنزل إليها حارس التين واسمه يزرزر

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص. 43.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 122، 123.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 32، 33.

(4) Lewicki (T); « Tasmayat Gabal Nafousa wa qurahum », WARSZAWA 1955, p23.

(5) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 53، 52.

فراودها عن نفسها فأبت عليه وامتنعت منه فعجن لها تينها ومضى وتركها وطلع إلى مظلته فقالت: أي ابالي أي ايسريري مايس نتا ومعنى قولها يا ربي انظر ما فعل بي هذا الكافر قال فنزلت عليه نار من السماء بل من الهوى فأحرقته في مظلته وبني في موضع مظلته مصلى وهو معروف إلى يومنا هذا»⁽¹⁾.

ونظرا لكل ما تقدم من مكانة علمية وسياسية واقتصادية وأدبية تتمتع المرأة مكانة هامة في مؤسسة الأسرة وتقوم بدور هام في بنائها منذ النشأة، فالمرأة النفوسية تختار زوجها، قال الورجلاني: « وكان سبب تزوجه (أبو مسور بن وجين اليراسني) لتلك المرأة أن شيخا من شيوخ نفوسة بعث أبا مسور إليها ليخطبها عليه، فأتاها أبو مسور وذكر ذلك، فأشارت إليه هو أنه تريد تزوجه دون الذي أرسله»⁽²⁾ وكثيرا ما يقوم مجلس الشيوخ بخطبة النساء الصالحات صونا للمرأة وتدعيما لأركان المجتمع⁽³⁾.

ويخبرنا البغطوري عن قصة اللقاء الأول بين أبي محمد وأم زعرور وكيف كان لعجوز صالحة دور في هذا اللقاء لأجل التعرف والزواج في مجتمع صارم تقيده نوااميس العزابة، فكانت على حالها (أم زعرور الجيطاليتة) تلك حتى قدم أبو محمد في يوم زائراً لام يحيى، فأخبرته بشأن أم زعرور ورغبته فيها وقالت له: إذا خرجت لتستقي الماء من الجب فاتبعها حتى تراها»⁽⁴⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 154.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص. 252.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص. 53.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 144.

كما أن الاختلاف المذهبي لا يفسد الزواج، فرغم أن الزوج وهبي والزوجة نكارية تظل مكانة المرأة رفيعة، فليس على المرأة خدمة الرجل وضيوفه، فالمرأة ريحانة وليست قهرمانة⁽¹⁾.

ظلت الرواسب البربرية القديمة قائمة في وجدان المجتمع النفوسي، لذلك قد ترفض بعض النساء الزواج عليهن⁽²⁾ ورغم الخصوصية البربرية في حفظ مكانة المرأة وعدم الزواج عليها، إلا أن الرافد الإسلامي الذي شكل عميقا ثقافة النفوسيين قد أرسى تقاليد جديدة تتعلق بتعدد الزوجات⁽³⁾، فنجد من النساء من تقبل التزوّج عليها من شابة⁽⁴⁾.

وأمام هذه المكانة الرفيعة التي تتمتع بها المرأة النفوسية فلا غربة أن تقوم الزوجات بتعنيف الشيوخ، يقول الوسياني: «وذكر أنه (أبو صالح جنون بن يرميان) قعد عند امرأته ذات مرة تعجن عجينا فكلمها بكلام لم يعجبها فنزعت يدها من العجين فلطمته خذاً، فصارت آثار الأصابع من العجين في خدّ أبي صالح موسومة قال وتحير ومضى إلى معلّمه يوسف يعقوب فشكاها، فقال له يعقوب: ترى هذه - وأشار إلى

امرأته هو - ضربتني البارحة بمقللة فصارت قلادة في عنقي. فقال له أبو صالح: أنت أنت أنت؟ ثلاث مرّات لا أشكوها بعد»⁽¹⁾.

وكما تختار المرأة زوجها وتخطب لنفسها، فإنها تطلق نفسها من زوجها عند طول غيابه وتعيد الزواج من رجل خارجي وغير وهبي⁽²⁾، كما أوجب الشيوخ تماشياً مع تعاليم الإسلام احترام حق المرأة في صداقها عند الطلاق⁽³⁾.

لا يمكن أن تحجب عنا هذه الروايات التي تقوم على التمجيد وغياب كامل للموضوعية، الواقع المزري الذي تعيشه كثير من النساء اللاتي كن على هامش الأحداث لما يتعرضن من غدر الرجال خاصة عند الزواج من دون وثيقة كتابية⁽⁴⁾ وكان جزاء المعتدي على زوجته نكالا فيستلعه الثعبان وهي قصة المرأة النفوسية التي غادرت الجبل مع زوجها مكرهة⁽⁵⁾.

كما أن الشدة وتدهور الوضع الاقتصادي قد حوّل الحرائر إلى إماء تبعن في جبل نفوسة، «وذكر أن رجلاً من أهل ميري اشترى جارية في السوق فاشتروها فاستقروها بانه أمة بنت أمة قدام أبي الشعثاء التستونوتي

- (1) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009، ج 1، ص 348-349.
- (2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 44.
- (3) يفهم المفسرون الآية 3 من سورة النساء على أنها دليل على حكم تعدد الزوجات رغم أن التعدد مشروط بالقسط مع اليتامى وهم من توفي أبوهم حصراً. «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا». (4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 87-88.

- (1) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009، ج 1، ص 433.
- (2) أبو الربيع الوسياني، نفسه، ج 1، ص 371.
- (3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 41.
- (4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 145-146.
- (5) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 120 و 121. الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2، ص 311-312.

ولواب بن سلام فجاء أخوها بعدما خرجت أيام الشدة فاستمسك بالذي اشتراها على أنها أخته وأنها حرة»⁽¹⁾.

لقد حافظت المرأة النفوسية على مكانتها، كما استفادت من خصائص الثقافة الجديدة لتدعيم هذه المكانة، إلا أن تدهور الوضع الاقتصادي والأمني قد حال دون تواصل هذه المكانة الرفيعة، فبعد العصر الذهبي لنفوسة، لم تحمل كتب السير أخباراً عن النساء رفيات المكانة فكان الزمن توقف عند سقوط دولة الرستميين.

تمتع المرأة النفوسية بمكانة اجتماعية مرموقة وخاصة العجائز اللاتي يتربعن على هرم التراتب الاجتماعي النفوسي، حيث يبين البغطوري فئات المجتمع الأباضي والذي تنصدر العجائز فيه المراتب العليا، يقول: «وروي أن العجائز هن خيم الإسلام. وروي أن الماضين خافوا على أحكامهم من مشائخهم ومشائخهم خافوا من عزابتهم وعزابتهم خافوا من عجائزهم»⁽²⁾ ونعتقد أن هذه المكانة لم تكن لتحصل عليها العجائز لولا الفراغ الكبير الذي تركه من توفي في مانو من العلماء كما أن العجائز هن حماة الثقافة والمتمسكات بالعرف والأكثر محافظة على تقاليد المجتمع، لذلك انبرى المجتمع النفوسي يبحث في سير السلف عن روايات تخدم هذا الغرض خاصة وأن البغطوري يستعمل لغة ومعاني القرن 6 هـ / القرن 12 م مثل مفهوم العزابة الذي لم يظهر إلا بعد القرن 5 هـ / القرن 11 م.

لقد أصبحت العجائز بعد معركة مانو مركز التعلم في جبل نفوسة، فقد كنّ عالمات يأخذ الناس عنهن دينهم⁽³⁾، لقد دفعت الحاجة ونقص

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 113.

(2) البغطوري، مصدر سابق، ص. 156.

(3) الدرجيني، مصدر سابق، ج 2 ص 378.

العلماء المرأة النفوسية إلى القيام بدور تعليمي، فقد كانت أم ربيع الوريورية: «أمة عابدة زاهدة تسعى وراء العلم ويزورها العلماء وكانت مأوى للأخيار وكهفا للأبرار»⁽¹⁾.

أدت هذه المكانة العلمية التي استحققتها المرأة النفوسية إلى إنشاء حلقات لتعليم البنات، مثل أم يحيى بقرية ايفاطمان وغيرها، حيث حولت الصالحة الأرملة أم يحيى بيتها إلى مجلس من مجالس الذكر⁽²⁾.

وفي المقابل عمل فقهاء المذهب الاباضي على تحجيم دور المرأة الاقتصادي خوفاً من تشتت الملكيات الزراعية التي كانت صغيرة أصلاً بالمجال الجبلي وذلك بالنظر إلى العدد الكبير من الرجال الذين قضوا في المعركة حيث يقدر باثني عشرة ألفاً منهم أربعمئة عالم، يقول البغطوري: «وروي عنه انه لما قتل نفوسة بمانو وخلفوا أيتاماً تألم أبو عبد الله محمد بن خير وكان حاكماً فقال له: رأيت إن تأخذ بهذا القول أن تجعل المرأة هي القاعدة فيما ينسب إليها، وتجعل ورثة الزوج هم القاعدين فيما ينسب إلى الرجل، وإنما أخذ المشايخ قبل ذلك أن من بقي من الأزواج هو القاعد في الكل»⁽³⁾.

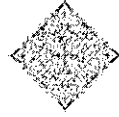
تقوم القاعدة التي يقوم عليها المجتمع النفوسي في الميراث قبل موقعة مانو على أن من يبقى من الزوجين رجلاً كان أو امرأة يرث الآخر، بينما حدث تغيير جذري لهذه القاعدة فأصبحت المرأة لا تتحكم إلا فيما ينسب إليها بينما تؤول الأملاك التي تنسب لزوجها إلى أبنائه مخافة تشتت الملكيات أو خروج هذه الملكيات عن العائلة والعشيرة بسبب الزواج والمصاهرة.

(1) الشماخي، مصدر سابق، ص 300 و 310.

(2) البغطوري، نفسه، ص 55، 54.

(3) البغطوري، نفسه، ص. 107.

يبدو جلليا الاعتماد التام لدى الاباضية على الأعراف البربرية في الميراث وغيره بعيدا عن قواعد الفقه الإسلامي حيث نجد الشيخ أبا عبد الله بن الخير حاكم الجبل يغفل عن القاعدة الفقهية الإسلامية الموافقة ويستنجد بالموروث البربري المحلي وهو ربما ما يفسر انتشار المذهب الاباضي وتجذره في صفوف البربر بعدد من جهات بلاد المغرب، ويتعزز هذا الرأي بما ذهب إليه التجاني الذي زار جبل دمر في بداية القرن 8هـ / القرن 14م، حيث يقول: «والفريضة عندهم كناية عن المفتي الذي يرجعون إلى أحكامه وقد تأملت في كثير مما يحكم به، وهم هنالك يبنون بيتا فوجدته لا يرجع فيه إلى شيء من حكم الشرع، وإنما سمي هذا مطمر نسبة إلى حكم السياسة والتسديد بينهم»⁽¹⁾.



الفصل الثاني

تنوع الاقتصاد النفوسي وتحولاته



(1) التجاني، مصدر سابق، ص 173.

تعد الزراعة والرعي والتجارة أهم الأنشطة الاقتصادية وأبرز موارد للأموال وقد أدى تراكم الأموال المتأتية من النشاط الزراعي إلى تحويلها إلى النشاط التجاري وهو ما أدى إلى نشوء الأرستقراطية، فقد رافق التطور السياسي بوصول التحالف القبلي إلى السلطة والتطور الاجتماعي بالانتقال من مجموعة القبائل إلى شعب، تطورا اقتصاديا تمثل في تقسيم العمل بين الأرستقراطي وهو صاحب الأرض والمزارع وبين الحرف والزراعة وبين المدينة والريف⁽¹⁾.

فيما يتعلق بالملكية الفلاحية، يمتلك الجبالي ضيعته من الغراسات كالزيتون والتين والنخيل ولكنه يشارك مع عشيرته في السهل لزراعة الحبوب كما يشاركون في المرعى أينما وجد الكلاء والماء.

تتمثل ملكية الأرض في الملكية الفردية والعائلية وتحدث أغلب نوازل الفرستائي عن الملكية الجماعية مثل «الملك المشاع» و«ملكية العامة» وبالتالي نحسب أن أنواع الملكيات كلها توفرت في جبل نفوسة، وإن كان المجال جبليا ضيقا ووعرا وهو ما أدى في كثير من الأحيان إلى نزاعات حول الأرض تعرض لها الفرستائي في كتابه.

استعمل النفوسيون العبيد في الفلاحة بالإضافة إلى أعمال البيت من خدمة لأهله، إلا أنه في العهد الحفصي عرف الخماس وهو عامل فلاحى يتحصل على نصيب من الغلة، وأحيانا تقوم الأرستقراطية الفلاحية باللجوء إلى أعمال السخرة وهو ما يدعو إلى مقارنة نمط الاقتصاد المغربي بالإقطاع الأوروبي.

(1) بن حسن (محمد)، القبائل والأياف المغربية، ص 16.

قام شيوخ الأباضية بالترغيب في مزاولة النشاط الفلاحي بما هو المصدر الرئيس لإنتاج الغذاء وذلك بإقدامهم على العمل في الحقول وتنظيفها لإعدادها في كل موسم «وروي عنه جاز عليه رجل هو يرفع الحجارة من الأصل فقال له لما ترفع الحجر بنفسك يا شيخ فقال له ما فعلت ذلك بحب الدنيا ولكني سمعت أن من رفع حجرا واحدا من الأصل فله الف حسنة»⁽¹⁾ وكذلك «قيل أن الماضين يحرقون شهرين ويحصدون شهرين ويتفرغون لطاعة الله ثمانية أشهر وقالوا أيضا لولا تلك الأربعة ما تهم هذه الثمانية فصار ذلك كله عبادة»⁽²⁾.

كما يقول ابراهيم بن سليمان الشماخي عن معيشة أهل جبل نفوسة: «معيشتهم من الحرث فهم يحرقون الجفارة والظاهر وغابتهم بها زيتون يجنونه في الشتاء بداية من أكتوبر»⁽³⁾.

وهو ما دعا جون دي بوا إلى الإستغراب حيث يقول: «نجد أحيانا بهذا الجبل شبه الصحراوي تقريبا حياة ونشاطا غير قابلين للفهم للوهلة الأولى ونتساءل كيف يمكن لهؤلاء الناس العيش وكيف يمكن لأرض بهذا الجفاف وهضاب وأودية بهذه الفظاظة أن تمتد كل هؤلاء القرويين بالغذاء»⁽⁴⁾.

يفصل إبراهيم الشماخي القول في معيشة أهل جبل نفوسة فيقول: «أهل الجبل يغرسون التين كثيرا والعنب ويميلون فيه بالمحراث وعندهم نخيل قليل ويشترون الأبقار والغنم والماعز وفي الشتاء يضعونهم في الغيران وفي الربيع يخرجون بهم إلى الجفارة والظاهر

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص. 56.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص. 32.

(3) الشماخي (ابراهيم)، القصور والطرق، ص 285-286.

(4) Despois (J), Djebel Nefousa , Etude géographique , p. 93.

في بيوت الشعر يتبعون الكلاً أينما يوجد وعندما يأتي حصاد الزرع يدخلون النساء إلى القصور ويذهب الرجال إلى الحصاد ويدرسون ويخزنون الشعير والتبن في مطامير ويرجعون إلى القصور ومنها يخرجون إلى الحرث والنساء يصنعون الصوف لأن لباسهم الحوالي وكذلك الشاشية»⁽¹⁾.

ينطبق هذا الوصف تقريبا على ما كان عليه الاقتصاد الرستمي الذي يقدمه الشماخي في السير نقلا عن الإمام عبد الوهاب، حيث يقول: «لولا أنا (عبد الوهاب بن رستم) ومحمد بن جرنبي ويبيب بن زغلين لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب ومحمد بن جرنبي بالحرث وابن زغلين بالأنعام. وقال أيضا: ما قام هذا الدين إلا بسيف نفوسة و أموال مزاته»⁽²⁾.

(1) الشماخي (ابراهيم)، مصدر سابق، ص 285-286.

(2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان،

2009، ج2 ص 341.

المبحث الأول

القطيع والحقل، تكامل وتنافس:

1 - القطيع والحصان: مكاسب الغنم ومكاسب الغنيمية.

أ) القطيع:

كان القطيع بجبل نفوسة متنوعا، حيث نجد الغنم والماعز والأبقار الحمير والخيول وعموما يرتفع عدد القطيع بالجهة الشرقية من الجبل مقارنة بالجهة الغربية ويرتبط ذلك بأهمية الغطاء النباتي⁽¹⁾.

نجد الأغنام التي ترعى حيث تصيب الكلاً في سهل الجفارة وبهضبة الظاهر وإذا كان العام مطيرا، يمتد موسم الرعي من الخريف إلى بداية الصيف، حيث تقترب قطعان الأغنام من مضارب نفوسة في قرى الجبل وهو ما يشكل خطرا على الغراسات ويثير صراعا بين القطيع والغراسات فيجتهد الشيوخ في إبعاد أذى الغنم عن غابات الزيتون «وروي انه وجد غنما في الخط تحت زيتونه فقام فيها يهش عليها بثوبه فطردها حتى ادركه العطش ولحقه الحر فوق صريعا وكان صاحب الغنم قد تبعه بدلو من ماء فأغاثه به حين وقع فشربه الشيخ حتى روي وأعطى الرجل رزقه من هناك فبقيت بركة دعاء الشيخ في ذريته الى يومنا هذا فيما قيل»⁽²⁾.

(1) Despois (J), Djebel Nefousa , Etude géographique, p.135.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 150.

رغم جفاف هذه المناطق فإنه في السنوات المطيرة يصبح الجبل والمناطق المحيطة به أراض خصبة، لذلك ترتفع أعداد قطعان الماشية في بعض الأوقات وتتنوع من الغنم والماعز والبقر والإبل والحمير وقد أكد الشماخي في أكثر من مرة في سيره على ارتفاع عدد القطيع بجبل نفوسة وكانت الملكيات الكبيرة بيد عدد محدود من الملاكين العقاريين أمثال يبيب بن زلغين أحد ملاك الماشية بجبل نفوسة بقول «فقد كان له ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنان عشر ألف حمار» لكن يبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا وهي عادة كتاب السير في التهويل في كل الأمور وكان رعاة غنمه كلهم عبيده ويدل على وجود هذه الثروة الحيوانية أو ما يقرب منها مدح الإمام عبد الوهاب لابن زلغين بقوله: «لولا أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام لخرب بيت مال المسلمين» في إمارة بني رستم⁽¹⁾.

كان الشيخ أبي عثمان من ميسوري الأباضية بالجبل وكان يملك غنما كثيرة، «وروي عن أبي عثمان الساكن في دجي دخل عليه رجل فوجد عنده عدد من رؤوس الغنم مختلفة اللون فسأله عن ذلك فقال له ابو عثمان سمعت انه من ذبح لآخوانه في الله شاة فله من الاجر بعدد جنسها من الالوان اينما كانت في الدنيا ففعلت ذلك وذبحت من أجناس مختلفة»⁽²⁾.

كثيرا ما يشترك الملاكون الصغار في القطيع، حيث يعهدون إلى راع واحد لأخلاط الغنم، يقول الفرستائي: «وإذا استرعى ناس كثيرون لحيوانهم راعيا مثل الغنم والبقر والإبل فإن القول في هذا كله قول

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 341.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 111.

الراعي مادام في الرعي. وذلك مثل إن أضاف إلى كل واحد منهم عددا معلوما أو شخصا معلوما، فالقول فيه قوله في كل ما لم يتبين له أنه لكل واحد منهم دون الآخرين. وأما كل ما تبين له أنه لبعضهم دون بعض فلا ينصت إليه»⁽¹⁾.

لأجل ذلك كان لابد من تنظيم شؤون سوق المواشي، فقد «روي عن ابي يوسف انه كان هو الذي يأذن لمن يبيع الغنم في سوق جادو، وفي عصره أحدث المشائخ ذلك من شأن دخول أتباع المسودة وإختلاف الأمور»⁽²⁾.

كما نجد البقر ويبدو أنه قطع، حيث ورد خبره في صيغة الجمع وكان كما الغنم، يشكل تهديدا للغراسات حيث «ذكر أنه (أبو نوح سعيد بن يخلف) رأى بقر الناس في زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع»⁽³⁾ وكانت الثيران تستعمل أصلا للحراثة «وروي عن أبي يحيى انه كان يعزق أرضه وينقل التراب خلفه سبعة من الثيران»⁽⁴⁾.

كما يتكون القطيع في جبل نفوسة من الإبل ونشير إلى أن المعلومات عنها شحيحة وربما يعود ذلك لقلتها في المجال الجبلي ويفسر ذلك بتقسيم العمل بين البدو والمستقرين، يقول ابن خلدون: «ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والتتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم

- (1) الفرستائي (أبو العباس)، كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بالحاج و محمد صالح ناصر، ط2، الجزائر 1997، ص 98.
- (2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 135.
- (3) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 368.
- (4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 66.

بالفلاح ودواجن السائمة. ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والإظعان في نتاج الإبل وضلال الرماح وقطع السابلة»⁽¹⁾.

وما يدل على قلة الإبل في المجال الجبلي هو اشتراك الناس في بعير واحد وهو ما لا يرتضيه شيوخ نفوسة، «وذكروا أن ثلاثة من أهل لالت اشتركوا في جمل فأخذ منهم فصادفوه بأدرج فوهب أثنان منهم سهما لواحد فشهدا له بالجمل بعدما وهبا له فأخذوا الجمل ولم يرض لهم المشايخ هذا الفعل»⁽²⁾.

كان الجمل يستعمل في المسافات البعيدة للحج مثلا⁽³⁾، كما تم استخدام الجمال في الأنشطة الفلاحية مثل رفع شبك الحصاد⁽⁴⁾، كما تسمّن الجمال زمن العزم على الدّرس⁽⁵⁾.

ورغم سكوت المصادر عن دور الجمل في الحراثة واقتصارها على البقر، فإننا نرجح قيام الجمل بهذه الوظيفة، حيث وجدنا رسما بمسجد أبي كار بقرية تامزدة يمثل مشهدا من الحياة اليومية وهو عبارة عن رجل يمسك المحراث الذي يجره جمل وأمامه رجل يبذر البذر⁽⁶⁾.

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 116.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 32.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 114.

(4) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 34.

(5) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ج 1، ص 64.

(6) أنظر: الزواري (محمد)، التعمير والعمران بجبل نفوسة في العصر الوسيط، أطروحة دكتورا، إشراف د. ناجي جلول، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس، السنة الجامعية 2015/2016، ص 51.

كما تستعمل الإبل في التاج، وأساسا في التجارة القوافلية وقد كانت مشاركة النفوسيين فيها كبيرة من القيروان إلى بلاد السودان مرورا بجبل نفوسة.

ب) الحصان:

لا يتواتر الحديث عن الحصان كثيرا في المصادر الإباضية، ربما لقلته في المجال الجبلي وفي المقابل يكثر الكلام عن الحمير والبغال حتى أن أحد أشهر قادة الإباضيين أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الذي قاد ثورة كادت أن تطيح بدولة العبيديين، كان يلقب بصاحب الحمار وكذلك غيره من شيوخ الإباضية الذين كانوا يمتطون صهوة الحمير أو البغال وربما يعود ذلك إلى تعلق هؤلاء الشيوخ بمظاهر الزهد، إلا أن فرضية الزهد تسقط عندما نعرف أن من الشيوخ من يحلي دابته بالذهب، « وبلغنا أن رجلا من نفوسة نظر إلى أبي القاسم (يزيد بن مخلد) راكبا على دابة عليها سرج محلاة بالذهب بزيئة حسنة... وكان له عشرون جملا وخلخل يسافر بهم إلى القيروان»⁽¹⁾.

يستعمل الحصان للتاج وخاصة للقتال والغزو والإغارة لدحر المخالفين ومقاتلة الأعداء، يقول البغطوري: «ولقد بلغنا انه خرج هو والعباس بن ايوب إلى جهاد بني يفرن وكانوا فيه حتى خاف ابو مرداس من ضعف العساكر فاستخلا هو والعباس بن ايوب فقال أبو مرداس ارجع يا ابن ايوب فقال له لا ارجع فقال له ارجع والا صحت في العسكر حتى اشقه شقا ثم جمع العباس الناس فقال لهم ارجعوا بنا

(1) الوردجلائي (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 207.

فقد فرقت الازواد وضعفت الدواب حتى تنفقوا ونرجع إلى عدونا ثم خرجوا اليهم ايضا مرة أخرى»⁽¹⁾.

كما اتخذ النكار والمخالفون الحصان للإغارة على الجبل حيث يقول الوردجلائي: «أرسل خلف رعيلا من خيل نحو أربعمئة فأرسل فيهم إخوته ومواليه وعبيده... هجمت تلك الخيل على قرية كانت بحيال عسكر أبي عبيدة تسمى ايدرف في حيز عبد الحميد وحریمه وطاعته فوضعوا أيديهم في النهب وأكل الأموال وقتلوا من قدروا عليه فيما بين العسكر والمنزل»⁽²⁾.

استعمل الحصان كذلك لرد العدوان وللذود عن حريم الجبل الذي يمتد من فاغيس شرق يفرن إلى لالوت.⁽³⁾

كما يستعمل الحصان لحماية القوافل التجارية «⁽⁴⁾ وقد كانت مهمة حماية القوافل جسيمة ما دعا قادة الدولة الرستمية إلى الإشراف عليها، حيث يقول الوردجلائي: «كان يوسف بن محمد في عهد أبيه على رأس جيش من زناتة لحماية القوافل التي تقبل من الشرق أو تقصده حاملة الذهب»⁽⁵⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 59.

(2) الوردجلائي (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 129.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 61.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 60.

(5) الوردجلائي (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 149.

تعود جسامة المسؤولية إلى ما تدره مهمة تأمين الطرق التجارية من أموال تسمى الخفارة وهي أموال مقابل الإجارة والحماية علاوة على السلع والقابلة للمبادلة⁽¹⁾.

كما يستعمل الحصان لحماية الحقول من تعدي القطعان، حيث يقول الدرجيني: «ذكر أنه رأى بقرا في زرع لغائب فأخرج البقر وطرده عن الزرع وهو على فرس أنثى يتبعها مهر، فلم ير على نفسه حرجا في دخول فرسه ومهره في الزرع، لأنه إنما قصد بذلك إزالة الضرر عن الزرع»⁽²⁾.

يستفيد النفوسيون من قطعان الماشية في عدة وجوه وخاصة منها الغذاء الذي توفره لحومها وحليبها والمتاع الذي يصنع من جلودها وأصوافها كما كانت من بين مكونات التجارة الداخلية والخارجية بين الأمصار وما تدره من أموال تمت مراكمتها لأجل المشاركة في التجارة القوافلية.

دفعت الأهمية الكبيرة لشجر الزيتون الفلاحين إلى العناية به في سائر الأيام حيث تنافس القطيع والزيتون خاصة مع ضيق المجال الجبلي ما دفع بقطعان الماشية إلى مغادرة الجبل نحو الظاهر أو نحو الحمادة الحمراء في الجنوب.

2 - الحقل وبركة الزراعة:

أمام قلة المياه بالمجالات الصحراوية ضببت المدونة الفقهية قوانين قسمة الماء في تنظيم تام لأصول الأرضين وهي قسمة شرعت لها المدونات الفقهية المحلية إباضية كانت أو سنية مثل ابن الشباط وخاصة الفرستائي الذي أولى حريم الماء أهمية بالغة في مصنفه، حيث يقول: «إن أرادوا أن يقتسموا أرضا دون الماء أو الماء دون الأرض أو يقتسموا الماء مع الأرض فلهم ذلك»⁽¹⁾. لقد ارتقت هذه التقنيات لتتجاوز طور الخبرة المحلية حتى تصبح علما متكاملا في تعمير المناطق الصعبة وشبه الجافة.

لقد كان لأبي العباس أحمد الفرستائي الذي توفي سنة 504 هـ / 1111 م فضل تحويل الخبرة المحلية علما، عندما جمعها سنة 471 هـ / 1079 م وهو مدرّس بغار العزّابة بتمولست، يعاين طرائق الفلاحين في تعمير الجبل، ويقضي في اختلافاتهم حول تعديلات حاصلة من البدو الرعاة. وقد ساعد هذا التدوين المعنون بكتاب القسمة وأصول الأرضين بأجزائه الثمانية في توفير قاعدة بيانات أساسية لعمارة المناطق الجبلية الصعبة والمجال شبه الصحراوي. ليكون الكتاب في الجملة مخزنا لخبرة الإنسان في إعادة تشكيل صورة المكان انطلاقا من حفظ الماء ومرورا بجلب المال وانتهاء بعمارة القصر⁽²⁾.

(1) - أبو العباس أحمد الفرستائي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكير بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997، ط2، ص289.

(2) حسين (الهاشمي)، المكان والإنسان بالجنوب الشرقي التونسي من خلال رحلات التجاني وبير فنكيار، رسالة ماجستير، الجامعة التونسية 2014. ص190.

(1) أبو الزبيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009 ج1، ص232.

(2) الدرجيني (أبي العباس أحمد)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ط3، سلطنة عمان 2016، ج2، ص414.

يقول الفرستائي: «والقسمة جائزة في جميع المياه، وسواء في ذلك الماء الجاري أو ماء المطر، وكذلك الرواكد من المياه، مثل الآبار والعيون والمواجل والأحواض، وكذلك الأوعية كلها تجوز فيها القسمة، وكذلك الماء الذي يكون في الجب على هذا الحال، والشركاء يتداركون القسمة فيما اشتركوا فيه من هذه الوجوه التي ذكرنا، سواء فيه المتصل والمنفصل على قدر ما يكون لهم المنافع، ويجبرون عليها على قدر نظر الحاكم أو الجماعة مما لا يضر نباتهم، سواء في ذلك الزوارع والأشجار، وإنما يقسمون على أقلهم سهما كما بينا قبل هذا»⁽¹⁾.

أكد الفرستائي في مصنفه على قواعد قسمة الماء وتنظيم توزيعها بين المشتركين حيث يجوز تقسيم الزمن وليس تقسيم الكمية بالدلاء ونحوها⁽²⁾، أما أوجه الانتفاع بالماء فتكون للشرب ونحوه دون الفلاحة⁽³⁾ وكذلك شأن الانتفاع من ماء المطر المتجمع في الفدادين والأراضي من قبل غير مالكيه في الشرب والغسل ودون الري والزراعة⁽⁴⁾.

(1) أبو العباس أحمد الفرستائي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكر بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997، ط 2، ص 108. أنظر أيضا، بن وزدو (الهادي)، ممّو (أحمد)، حسن (محمد)، قانون المياه والتهئية المائية بجنوب افريقية في العصر الوسيط، مركز النشر الجامعي، تونس 1999، ص 90.

(2) أبو العباس أحمد الفرستائي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكر بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997، ط 2، ص 110-111.

(3) أبو العباس أحمد الفرستائي، نفسه، ص 283.

(4) أبو العباس أحمد الفرستائي، نفسه، ص 284. أنظر أيضا، بن وزدو (الهادي)، ممّو (أحمد)، حسن (محمد)، قانون المياه والتهئية المائية بجنوب افريقية في العصر الوسيط، مركز النشر الجامعي، تونس 1999، ص 101.

ويجوز للمشاركين إنشاء المساقى على الأودية لصرف المياه إلى الحقل: «وإذا أراد قوم أن يعمرؤا أرضهم على ماء المطر ومساقى الأرض التي أرادوا عمارتها منها، فإنه يكون ذلك بينهم، كما اشتركوا في أرض المساقى»⁽¹⁾.

كما فصل الفرستائي القول في أنواع الأودية ومقدار الانتفاع من مائها: «ومن كانت لهم أرض بجانب مساقى غيرهم، وأرض تلك المساقى لهم أو لغيرهم، فلا يعمر أرضهم من تلك المساقى إلا بإذن أصحاب ماء تلك المساقى، سواء أكانت المساقى فحولا أو أودية، وسواء أيضا الأودية الصغار والكبار، إلا ما فضل عن أصحاب المساقى وخرج من أرضهم، فيكون كما ذكرنا أولا. ومن العلماء من يرخّص في الوادي الكبير الفحل إذا كان لرجل بجانبه أرضه أن يعمرها منه، ويصرف منه مقدار عشرة أو ثمنه أو خمسة، ولا يصرف منه أكثر من ذلك، وسواء في هذا من كان عند رأس الوادي، ومن كان عند آخره»⁽²⁾.

ويتم إنشاء المقاسم بواسطة الحجارة والجص والجير حتى تصمد أمام اندفاع الماء وهو ما يسمى كتف الجسر أو الطابية⁽³⁾.

وهكذا مثلت أصول الأرضين تثبيتا لأعراف الحقل.

يحتل النشاط الزراعي بجبل نفوسة أهمية كبيرة حيث يمثل فترة هدنة من الحروب فقد انهزم أبو الخطاب بسبب افتراق جيشه إلى

(1) أبو العباس أحمد الفرستائي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكر بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997، ط 2، ص 284.

(2) أبو العباس أحمد الفرستائي، نفسه، ص 285. أنظر أيضا: بن وزدو (الهادي)، ممّو (أحمد)، حسن (محمد)، نفسه، ص 91.

(3) أبو العباس أحمد الفرستائي، نفسه، ص 290.

الحصاد كما أن عبد الحميد الجناوني إضطر إلى انتظار انتهاء الموسم الفلاحي حتى يعيد الكرة في حربه مع خلف.

لقد ازدهر النشاط الزراعي خاصة في السنوات المطيرة حيث تسيل الوديان مثل وادي الآخرة ووادي الشيخ وشروس ونالوت وأمسين والعيون مثل عين الزرقاء والرومية والريانة وتمتلئ السدود والمواجل والآبار وعموما ينقسم هذا النشاط إلى قسمين هما الغراسات والزراعات:

(أ) الغراسات:

تتعدد أصناف الغراسات التي ينتجها الجبل ويمكن حصرها حسب الأهمية في الأنواع التالية:

الزيتون:

تسمى شجرة الزيتون تازمورت وأزمور بكلام أهل الجبل وهو مفاد قبيلة زمور النفوسية⁽¹⁾ ويعدّ الزيتون أثمن غرسهم وأقدمه⁽²⁾ وتنتشر أشجار الزيتون بكثافة كلما تقدمنا نحو شرق جبل نفوسة وذلك في علاقة وثيقة بارتفاع كميات الأمطار السنوية التي تتراوح بين 150 مم و 250 مم وهي كميات تكفي أشجار الزيتون لكي تواصل حياتها لمئات السنين.

أحصى جون دي بوا في بداية ثلاثينات القرن العشرين 201105 شجرة زيتون منها 174703 بالقسم الشرقي و 28402 بالقسم الغربي،

(1) ومادي (محمد)، أمارال معجم أمازيغي ليبي، نسخة الكترونية، مادة «زمر»، ص 142.

(2) الميار (عبد الحفيظ فضيل)، الحضارة الفينيقية في ليبيا، بنغازي ليبيا 2001، ص 168.

أي أن الجهة الشرقية تفوق الجهة الغربية بحوالي ست مرات ونحن إذ نورد هذه الإحصائيات المتأخرة، نروم المقارنة بين القسمين الشرقي والغربي من جبل نفوسة⁽¹⁾، كما يبلغ اليوم عدد المعاصر 289 معصرة وما ارتفاع العدد إلا دليل كاف على انتشار غراسة الزيتون بالجبل.

تتوزع أشجار الزيتون على كامل أرجاء جبل نفوسة في الرحيات وفساطو والرجبان والريانة والزنتان وخاصة تاغرمين الحد الشرقي لجبل نفوسة التي عرفت بشهرتها منذ القرون الهجرية الأولى حيث يقول البغطوري: «وروي أيضا عن ام جلددين انها سألت ربها ان لا يميته حتى ترى ام زعرور وحتى تبصر زيتون تغرمين وان يصلي عليها ابو محمد التغرميني اذا ماتت»⁽²⁾.

يعد زيت الزيتون من المواد الباهضة الثمن بجبل نفوسة نظرا لأهميته الغذائية فهو عنصر غذاء أساسي بالجبل وبحوض المتوسط لذلك ارتفع ثمنه وغلا سعره، حيث باع الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان شجرة زيتون واحدة في شروس بأربعين دينارا⁽³⁾.

بالإضافة إلى قيمتها الصحية تحظى الزيتون بقيمة روحية فهي «الشجرة المباركة» كما وردت في القرآن الكريم لذلك فالزيت كلفه طهارة لا يلقي به خسارة، يقول الوسياني: «ذات مرة جاءه الشيخ (أبو عبد الله بن الخير) كما كان يأتيه (أفلح بن العباس) فرأى زيتا يسيل على ساق زيتونة فسأل الشيخ أفلح عن ذلك فقال: ذاك غدائي لثته بزيت في إناء مشغوب مضطرب بالحديد فأصابتنني منه حديدة فرفعت يدي فإذا

(1) Despois (J), Djebel nefousa, Etude Geographique, p.109.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 156.

(3) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 418.

الدّم فيه فأرقته على الزيتونة وهو الذي تراه. فقال له الشيخ: لم فعلت هذا يا ضعيف؟ من قال لك نجس ذلك الطّعام؟ لعلّ الدّم بعدما رفعت يدك خرج ولعلّ الدّم لم يبلغ الطّعام وقد قال العلماء إذا كان تسعة وتسعون وجها كلّها تنجس الطّعام وكان واحد منها يطهره الواجب عليك تطيره، لأنّه ما جعل عليكم في الدّين من حرج»⁽¹⁾.

كما يستضاء بزيت الشجرة المباركة احتفاءً بالولد الجديد، «وذكر عن أبي زكريا بن أبي عبد الله انه ولد له صبي فأرسلت إليه امرأته وهو في شروس أن يعالج لها شيئاً من الزيت لتستضيء به للصبي ولما تعجل له. فرد إليها الشيخ فقال ما يكفيك أن تفعل ما تفعل نساء أهل المنزل وكان حالهن في ذلك الزمان الشديد انهن كن يجعلن النار في عود الشيخ فيستضيء به أهل البيت وذلك من قلة الزيت. فسمع بذلك رجل من أهل شروس فأخذ بطة فملأها زيتاً وأرسلها إلى امرأة الشيخ فوسع الله على الرجل وذريته في الأموال من هناك»⁽²⁾.

كان الزيتون يدر على أصحابه أموالاً كثيرة ويقي الفقر ويعيل يتامى» وذكر أنّ رجلاً توفي في جبل نفوسة واستخلف على ولد له رجلاً، فلما جاء وقت خرط الزيتون وصرامه، فقام الخليفة فباع غلّة زيتون اليتيم بأربعة دنانير، فسمع بذلك أبو مهاصر، فقام إلى المشتري فطرده، فتولّى بنفسه القيام على غلّة زيتون اليتيم فأخذ لها الأجر وأخرج نفقة اليتيم سنة وباع البقية باثني عشر ديناراً، فعند ذلك قال الشيخ أبو مهاصر: من يسأل الله على هذا أنا أو أنتم يا نفوسة!⁽³⁾. ورغم غرابة القصة

فإنها متواترة، حيث يعيد البغطوري ما ذكره الوسياني فيقول: «وذكر أن رجلاً من أهل منزله أستخلف على يتييم فباع زيتون اليتيم على الشجر بأربعة دنانير وشارك المشتري في الربح فسمع أبو مهاصر بذلك فأمر رجلاً على الزيتون فلقطه وباع منه أحد عشر ديناراً وبقي لليتيم خابية زيت أكل منها اليتيم سنة فقال أبو مهاصر للمشائخ ايسألني الله على ذلك يا مشايخ»⁽¹⁾.

دفعت هذه الأهمية الكبيرة لزيت الزيتون الفلاحين إلى العناية به في سائر الأيام حيث تنافس القطيع والزيتون خاصة مع ضيق المجال الجبلي ما دفع بقطعان الماشية إلى مغادرة الجبل نحو الظاهر أو نحو الحمادة الحمراء في الجنوب، «وروي أنه وجد غنماً في الخط تحت زيتونه فقام فيها يهش عليها بثوبه فطردها حتى أدركه العطش ولحقه الحر فوقع صريعاً وكان صاحب الغنم قد تبعه بدلو من ماء فأغاثه به حين وقع فشربه الشيخ حتى روي وأعطى الرجل رزقه من هناك فبقيت بركة دعاء الشيخ في ذريته إلى يومنا هذا فيما قيل»⁽²⁾.

كما وصل حد تعدي القطيع على الزيتون إلى سجن أبي زكار صهر الشيخ أبي محمد التغرميني الذي كان حاكماً للجبل بسبب رعي غنمه في الحقل: «وكان قويا في دين الله. فسجن يوماً أبا زكار، من أهل أغرم

والثقافة، مسقط عمان 2009، ج 1، ص 266، 267

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 114

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 150

(1) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009، ج 1، ص 255، 256.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 76.

(3) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث

إينان وهو صهر أبي محمد التغرميني، فسجنه في مسجد أمسراتن، تأديبا عن رعي غنمه في الخط»⁽¹⁾.

لقد كان حكام الجبل يفرضون سيطرتهم على موسم خرط الزيتون بتنظيم موعده وهو حال حاكم الجبل والي الإمام عبد الوهاب على نفوسة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني «وروي أن أبا عبيدة حاجر على أهل اجناون أن لا يخرطوا زيتونهم إلا في وقت معلوم فكسر واحد منهم حجره وخرط من زيتونه قليلا ليحمله للزق للدباغ فضربه الأدب فقال أنضربني على مالي ظلما يا ابن محمس فقال له فحاشا لله أن أضربك على مالك وإنما ضربتك على الحق»⁽²⁾.

كما يحظى خرط الزيتون بالعناية فيشارك فيه الملاك والعمال وهم من العبيد والعزابة، فلا يستنكف خراط الزيتون من قراءة لوحه أثناء العمل، فلئن عبّر ذلك عن شدة التعلق بالعلم فإنه أيضا تعبير على شدة أهمية موسم جني الزيتون، «وروي عن أبي يوسف وجدليش أنه كان يخرط زيتونه ويعلق لوحه في الزيتون فيقرأه»⁽³⁾.

لقد انتشرت معاصر الزيتون بكامل الجبل وكانت أكثر انتشارا في القسم الشرقي مقارنة بالقسم الغربي لجبل نفوسة وكانت أغلب المعاصر كهفية ويبدو أنها قديمة وربما تعود إلى العهد الروماني ولا يترفع الشيوخ عن الاشتغال في معاصر الزيت في موسمه كما فعل شبية الدجّي حامل لواء نفوسة في معركة مانو، «وانه (شبية الدجّي) خرج من

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 396.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 128.

(3) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 54.

المعصرة فتغير ثوبه فقال لو أن امرأته رأت طهراً يشبه لون ثوبي هذا فإنها تغتسل وتصلي وتأخذه وقتا أيضا ان دام عليها»⁽¹⁾.

كما كانت الزيتون فوق ذلك كله فضاء الميعاد وغطاء يستظل بها مجلس العلم، «وذكروا عن أبي سليمان الاينري كان إذا كان أبو زكريا حاضرا يقول له: يا يحيى وإذا غاب عنه يقول أبو زكريا بن أبي عبد الله جرثومة الاسلام ويكبر أمره ويشدده وانه جاز في منزل ابنه ذات مرة فنزل في المسجد فقال له أبو سليمان يا يحيى قعدت ها هنا في المسجد والناس مساكين لا يقدرّون على شيء ارجع تحت الزيتون حتى نعالج لكم شيئا من الطعام»⁽²⁾.

رغم الانتشار الواسع لأشجار الزيتون بجبل نفوسة إلا أنه كثيرا ما يعرف سنوات قحط بسبب الجفاف والمناخ الصحراوي وعدم انتظام الأمطار مما دفع أهل الجبل إلى الإقتصاد في زيت الزيتون وهو سلوك جبالي يحتاج للزمان، حيث قال البغطوري: «ومن إقتصادها أن كوزا من الزيت مكث عندها سنة تجعل منه باصبعها لايتها في طعامها»⁽³⁾.

مثل الزيت مادة تبادلية لدى التجار يحملونه في تجارتهم إلى الأمصار المجاورة في زمن الرخاء وفي زمن الجذب يجلبه التجار من المناطق البعيدة لحاجة ساكنة الجبل إليه، فكان النفوسي يذهب على حمار إلى إفريقية ليمتار الزيت، «وروي (عن أبي عامر) انه بعث حماره إلى إفريقية ليمتار الزيت، فأخذت الرفقة فجأة فأخبروا الشيخ فقال: لهم حماري أنا لم يؤخذ حتى إلى ذات ليلة وهم نيام فقال لهم قوموا وحطوا على الحمار حمله. فأصابوا الحمار [باللحم] واقفاً على الباب»⁽⁴⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 111.

(2) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 75.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 69.

(4) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 71.

التين

تسمى شجرة التين الكرمة أو تامديت بكلام أهل الجبل⁽¹⁾ وتنتشر أشجار التين بكامل جبل نفوسة حتى أن عددها يفوق عدد أشجار الزيتون وقد أحصى جون دي بوا 341688 شجرة منها 295862 تينة بالقسم الشرقي و 45826 كرمة بالقسم الغربي أي أن الجهة الشرقية تفوق الجهة الغربية بحوالي ست مرات⁽²⁾.

تشتهر قرى جبل نفوسة بانتاج التين الذي يحظى بمكانة هامة ولأهميته غلا ثمنه، فقد بلغت «الكرمة» الواحدة ثلاثة أرباع دينار، «وروي إن رجلا من أهل لالت جاء إلى شروس فأصابته ضيقة فجعل يقول أيها الناس من يشتري مالي بغيراط فقال ابن جلداسن قد جعل الرجل عليكم حجر أيها الناس فمروا به فأطعموه ثم باع شجرة واحدة وهي الكرمة بثلاثة أرباع الدينار»⁽³⁾.

كان يستفاد من التين في الغذاء وخاصة في التجارة مع الساحل الطرابلسي، حيث تدر التينة أموالا على صاحبها يتفقه طيلة السنة، «وقيل عنه انه يصيب (يجمع) ثلاثمائة مِج في السنة تينا والمج اثنا عشر كروة فينفق مائة على عياله ومائة لتلاميذه ومائة يطعمها للأضياف»⁽⁴⁾. والمج والكروة وحدات كيل المحاصيل والمج يساوي 12 كروة.

يقدم التين لقرى الضيوف خاصة من المشايخ المبجلين، «وروي أن رجلا من أهل تمنكرت زاره المشايخ ولم يجدوه في بيته فأرسلوا

(1) ومادي (محمد)، أموال معجم أمازيغي لبي، نسخة الكترونية، مادة «مد»، ص 378.

(2) Despois (J), Djebel nefousa, Etude Geographique, p.109.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 35-34

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 51

إليه رجلا فوجده يعزق فقال له شيخ يزوره الناس ويعزق فسكت ولم يرد له جوابا فسار معه إلى المشايخ فصافحهم وادخلهم البيت وقدم اليهم بطانة تين فلما أكلوا قال التمنكرتي للمشايخ اعطوني حقي من هذا الرجل فأخبرهم بما قال له، فقال لهم: لولا عمل شغلي فمن أي شيء أقدم لكم هذا الذي أكلتم»⁽¹⁾.

كما أنقذ محصول التين أهل الجبل من المجاعة زمن الحصار في الحروب، «وذكروا أن أهل ولون أنهم حملوا له في مخازنهم مائة مج تينا من دمنته حين حُصر بالجزيرة بكتامة»⁽²⁾.

وإلى جانب أهميتها الاقتصادية والغذائية تحظى التينة بقيمة روحية، فهي كما الزيتون مباركة وقد أقسم بها الله في القرآن لذلك تطلب في نفوسة يوم الجمعة، «وروي أن رجلا من أهل تمنكرت كان يلتقي هو ورجل من أهل شروس في مسجد أجلمم في كل جمعة فاذا طلع التمنكرتي حمل معه تيناً فيأكله هناك حتى ذات مرة رفع الشروسي معه عجنة لياكلها هناك فأبى له التمنكرتي من أكلها فقال له دعنا نأكل الذي نأكله أول مرة فتركوا تلك العجنة على الصخرة»⁽³⁾.

وتحت ظلال التين الوارفة تلد النساء، «ثم تزوجت في ايميتون فسارت ذات مرة إلى تندوزيغ لتحضر المجلس فولدت هناك صبية تحت شجرة التين واذا أثقلت عليها ابتها بعد ذلك تقول لها اليس يا فلانة فالمجلس الآن لذة فترك ذلك»⁽⁴⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 105

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 51

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 104

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 69

يحضى التين بالبركة من زمن النصرانية فيها هي امرأة صالحة نصرانية تصون حرمة التين في نفوسة بالدعاء قبل زمن الإسلام فيستجيب لها الله وينصرها، «وروي ان امرأة من أهل تدينيت صالحة في أيام النصرانية قبل الإسلام حملت قفة من تين فنزل إليها حارس التين واسمه ييززرز فراودها عن نفسها فأبت عليه وامتنعت منه فعجن لها تينها ومضى وتركها وطلع الى مظلمته فقالت: (أي ابالي أي ايسريري مايس ننا) ومعنى قولها يا ربي انظر ما فعل بي هذا الكافر قال فنزلت عليه نار من السماء بل من الهوى فأحرقته في مظلمته وبني في موضع مظلمته مصلى وهو معروف الى يومنا هذا»⁽¹⁾

يمكن أن يتسبب إفساد محصول التين في التوبة وهو ما حصل مع وهيلي الذي تاب وأصبح ينعت بالتائب، «وذكر عن وهيلي من أهل تندوميرت كان في اول عمره يجعل يده في أموال الناس حتى إلى يوم من الايام استعانت امرأته بنساء على غزل الصوف فارسلته ليأتي لهن التين فمضى فاتى بالتين فرأته امرأته حبا لم يشبه حب تينهم فعجنت ذلك التين في قفة ورمت بها خارجا فلما رأى ما فعلت به انكسرت نفسه فأدركته الخطوة والندامة من افعاله فيما مضى فوكت التوبة في قلبه فغسل ثيابه وطلع على رملة هناك وجعل يحاسب نفسه فيما أكل من أموال الناس ويكي حتى عد سبعة عشر دينارا فأول خطوة في تعديبه وجد فيها دينارا ثم أخذ يحسب كذلك حتى وجد السبعة عشر دينارا فأخبر المشايخ بذلك فقالوا له تلك علامة حسنة رد الحقوق لأهلها»⁽²⁾.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 154

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 77. ورد اسم وهيلي كذلك أبلي وهو ربما «وهب الله»، أنظر: الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 491-492، ج 3 ص 1042.

أبدى النفوسيون عناية كبيرة بالتين لأهميته وخاصة من طرف الشيوخ فهذا ابن جلداسن أحد حكام الجبل يمنح عنايته الفائقة لأشجار التين، «وروي عن ابن جلداسن انه قيل له انك ضيعت الحق فقال لهم سيروا إلى الفج فاقعدوا على الطريق للخدم فإن وجدتم معهن عودا يابساً من عيدان التين فقد ضيعت الحق كما قلتم»⁽¹⁾.

كان الصّالحوون يقومون بحراثة الحقول على البقر وينتظرون إنضاج التين ويدعون بالغيث، فقد روي عن ابي محمد عيسى بن محمد اللوشائي «أنه كان يعمل في فدان له فإذا جاز عليه الناس عرضوا عليه ليأكل فيقول لهم ما رأيتم الاشجار محمرة بالتين فيترك ذلك التين حتى يشتد عليه الحر فيأكل وإنما يفعل ذلك من قلة الدنيا وذكر عنه انه اتاه ولده يوما بغذائه وهو يعمل في تلك الفدادين فقالت له أمه إذا أكل ابوك فاسأله أن يدعو الله أن يسقي فدادينا (فقال ما اكثر) فلما أكل الشيخ قال له ابنة يا أبت أدع الله أن يسقي فدادينا فقال ما اكثر حبك في الدنيا أنت وامك يا محمد قال فتوضى وركع ركعتين فحرك الشيخ شفثيه بالدعاء فلم يلبث أن قال لولده اخرج البقرة واداة الحرث يا محمد جاءك الماء قال فنظر إلى السماء فلم ار فيه سحاباً إلا مقدار خفيف، بل خف البعير على جبل فرسطا فما اخرجت البقرة إلا والفدان يسيل إليه الماء من كل جانب فامتثلت فدادينه وفدادين جيرانه ليس فيها قطرة»⁽²⁾.

كما قام الشيوخ بالعناية بالغروس في الجبل وذلك بالتحريض للماء وعزق الأرض، «وذكر عنه انه كان يعزق في فدانه يزرع مزراقه حتى عزقة كله وغرس الغروس ويحفظها بالماء فيمر المسوقون من

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 36.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 70.

الفدان وحدة قيس مساحة الأرض ويبلغ 4200م² تقريبا.

أهل فرسطينا فيشربون من أحواض الغروس ويتوضون لصلاتهم⁽¹⁾ ومتى احمر وحن قطافه تتجدد اليد العاملة العائلية لقطف الثمار فيأكلون منه وينشرون ما يزيد على الحاجة حتى يبقى صالحا لوقت الشدة وذلك بتجفيف التين وهي عملية تنجز بطريقة جماعية حيث تتجدد النسوة للقيام بهذه العملية ومساعدة بعضهن البعض فيتم فتح حبة التين وطرحها وعرضها لأشعة الشمس في مكان عال مثل سطوح المنازل وبعد مدة تحفظ في وعاء لإستعمالها طول السنة، «وذكر أنها (أمة الواحد) إذا خرجت إلى التين بكرت وتأتي لهم ما يأكلون وترجع إلى التين فتجني وتشر»⁽²⁾.

رغم العدد الكبير لأشجار التين بالجبل فإن الملكيات هي صغيرة وعائلية فقد يشترك الرجل وزوجته في الحقل فيستشيرها عندما يحين وقت الحراثة ووقت جني ثمار التين، «وروي عن ابي موسى من أهل اوتلجام كان يقول لأمرأته أأحرث يا فلانة وانما استاذنها من ثلاثة أرباع الأصل الذي أصدقها وتقول له أحرث يا شيخ ويقول لها أيضا جرت اليوم على كرمنا يا فلانة وهي محمرة بالتين وتقول له الى متى يا شيخ أو ليس قد جعلتك في حل فيقول لها لئلا يتغير ما في قلبك»⁽³⁾.

يستغل المشايخ بعض القصص لتكون موعظة وعبرة خاصة وأن هؤلاء المشايخ هم قادة الرأي ومعلمي المجتمع وسادته في ظل نظام العزابة لذلك يحذر الشيخ أبو مهاصر الافاطماني كل من يهمل غلة فداناه فإنه يضطر لبيع حقل التين جوعا وفقرا، يقول البغطوري: «وروي عنه انه جاز على رجل من أهل منزله في فدان الكرم فنظر الى

الكراميس قد وقعت من الشجرة فقال لصاحبه ان لم تكن لك بها حاجة سألقطها انا فقال لا حاجة لي بها القطها فلقطها الشيخ فجعلها في قلة حتى وقعت الشدة والقحط في البلد فنأدى صاحب الفدان فدانه للبيع، فأشتره ابو مهاصر بتلك الكراميس حتى أخلف الله فنزل المطر على البلاد وحرثه ابو مهاصر فسواه حتى الى أيام التين جاز عليه صاحبه الذي باعه والاشجار محمرة بالتين. واتي ابا مهاصر فقال له لم تركت يا شيخ تينك لم تجنه وقد جرت عليه اليوم واشجاره محمرة بالتين فقال له أبو مهاصر شق عليك فدانك يا مسكين»⁽¹⁾.

- العنب: تتمثل الغراسات أيضا في إنتاج العنب، حيث «روي عن ابي يحيى من أهل ازداك انه صرم عنبه فأرسل الى صاحب له نصراني ليأكل العنب فأثاه هو وبناته»⁽²⁾.

لم يكن إنتاج العنب واسع الانتشار لذلك يسعى أصحابه إلى توزيع المحصول على أهل القرية فيتذوق غلته الجميع فهو بالتالي لم يكن موجهة للتجارة، «وذكروا عنه انه قال لابي القاسم البغطوري كل عنبك هذه السنة أيضا فلا نرى منها شيئا فأرسل له ابو القاسم حمل عنب فقال نخبرك لتفرح ما بقيت دار من دورا ايفاطمان الا وقد دخلتها عنبك وبقي ما تأكل ثمانية أيام»⁽³⁾.

ب/ الزراعات:

يزاول أغلب النفوسيين النشاط الفلاحي وخاصة زراعة الحبوب حتى أن ذلك تسبب في هزيمة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 113، 114.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 152.

(3) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 115.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 70.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 88.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 111.

المعافري في معركته مع محمد بن الأشعث فقد تجمع لابن الخطاب حوالي 70 ألف مقاتل من نفوسة وهوارة وجريشة إلا أن تمويه ابن الأشعث بالانسحاب قد دفع جيش ابن الخطاب إلى مزاوله أعمالهم الفلاحية وكان وقت حصاد⁽¹⁾.

وبما أننا إزاء مجتمع شبه مستقر فإنه يغادر في الربيع نحو الفيافي والمروج الخضراء للاحتشاش ورعي الأغنام والاستعداد للحصاد، يقول الدرجيني: «وكان ذلك في أيام الربيع وقد خرج الناس ولم يبق في البلد إلا أبو مرداس»⁽²⁾.

تتمثل الزراعات في الحبوب وأساسا الشعير وهو «طمزين» بدرجة أولى والقمح وهو «إيدر» بدرجة ثانية وقد تحدثت المصادر كثيرا عن هذا الشعير، يقول ابن حوقل: «جبل نفوسة جبل عظيم ويبلغ طوله مسيرة ثلاثة أيام وله منبران باثنتين من المدن، إحداهما مدينة شروس وتقع وسط جبل نفوسة وتحتوي على عيون عذبة بالإضافة إلى أشجار العنب والتين ويعد الشعير الرئيسي الذي يتخذ منه السكان طعاما أساسيا»⁽³⁾.

تعد زراعة الشعير من الأنشطة الفلاحية الرئيسية بجبل نفوسة وفي المجتمعات الريفية عموما وهو نشاط موسمي حيث تتم الحراثة بعد نزول الأمطار منتصف شهر أكتوبر ويمكن أن تتأخر إلى ديسمبر حسب مواعيد الأمطار وتتم حراثة حقول الشعير على البقر بينما تتم حمايتها بواسطة السلاح، «وذكر أنه (أبو مرداس) نزل إلى فدانه يحرق ببقرته

- (1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 68.
- (2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2، ص 292.
- (3) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص 94-95.

فجاءه رجل فقال اخرج من فداني فخرج أبو مرداس من الفدان وتركه، ثم ادركه فقال له اترك البقرة هي لي فتركها له ورجع إلى بيته فاتاه الرجل فقال له اخرج يا أبا مرداس من بيتي فدخل أبو مرداس إلى البيت وقال لأمراته اعطيني سلاحي يا فلانة ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها واخذ سلاحه يريد دفعه عن نفسه وبيته فقال يا أبا مرداس انما كنت استهزىء فمالي في البقرة ولا في الفدان والبقرة شيئا فتركها ورفع يده عنها»⁽¹⁾.

كان كبار الملاكين يشتركون مع صغار الفلاحين فيكون على الملاك الزريعة، بينما يتكفل الفلاح بالبذر والحراثة ويتم الإشتراك في المحصول مناصفة عند الحصاد وهي إحالة على بروز نمط انتاج يمكن أن نسميه نظام المشيطة، فالمشيطة شريك في المحصول بمجهوده البدني، يقول الورجلاني: «وذكر عنه أنه دفع لمشيطة له شعيرا أو زريعة ليزرعها في حديقة له فكان أبو جعفر يسأل المشيطة ما فعل الزرع فيقول المشيطة بخير يا عمي أبا جعفر فلما حضر أوان الحصاد زار أبو جعفر حديقته لينظر إلى زرعه فلم يجد شيئا فتلقاها المشيطة بكلام مغضب قال: يا عمي أبا جعفر أزرع لك الزرع ويموت أولادي جوعا؟ فخرج أبو جعفر وهو يقول: سلاما سلاما امتثالا لقوله عز وجل: «واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»⁽²⁾.

- (1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 58.
- (2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 297، 298. أنظر أيضا:
- شرف الدين (لمياء محمد سالم)، بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، بنغازي ليبيا 1999، ص 186.

ومن القوانين المرافقة لحرث المطيرة بالتشارك بين المالك والزراّع في جبل نفوسة أن الزراّع لا يدفعون زكاة المحصول، «وذكروا أن أهل لالت حرثوا لابي هارون الجلالمي مطيرة فأصابوا له فيها ثلاثمائة مودي شعيرا فقال لهم انما كانت الزكاة علي والبدرين عندهم»⁽¹⁾.

يملك الشيوخ مزارع الشعير بينما تمثل العزابة يد عاملة فلاحية، «وذكر أن الشيخ أبا زكرياء يحي بن أبي بكر حصده عنده العزابة فلما فرغوا وأرادوا المضي قال لهم: تريدون أن تجعلوني باكتب فجلبهم وأطعمهم وهذا في غابته المنسوبة إليه»⁽²⁾.

يحدثنا الدرجيني عن حرفة الجنان والمقصود به الزراع الذي يقوم بزراعة الشعير وغيره⁽³⁾ وهي مهنة إرتبطت بخبرة أهل الجبل وممارستهم الطويلة للنشاط الفلاحي المستقر.

وقد كان الأجراء الضعفاء اصحاب وضعية مهينة: «وذكر أن نفوسة لما قتلوا في وقعة مانو فبقي من بقي منهم ولم يجدوا من يبين للناس أموالهم من الأشجار إلا العسفاء يعني الأجراء فكانوا يقولون لهم: وهم فلان فأس وفلان زحف وفلان أشبر فحكموا بهم أينما وجدوا سيما على ما قالوا»⁽⁴⁾.

يتحصل الجبالية على كميات قليلة من الشعير تبعا لكميات الأمطار كما أن الصابة غير منتظمة المردود ويتم خزن محصول الشعير في

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص. 34.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1 ص 270.

(3) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج2 ص 404.

(4) الوسياني، نفسه، ج1 ص 272.

مطمورة ونظرا لأهمية المحصول يتمكن صاحب الدين أن يقضي دينه، حيث يخبر الوارجلاني فيقول: «زار عبود بن منار الهزاني أبا محمد عبد الله بن ما نوح فسأله عن احواله فقال: انت عظيم في نفسي يا عبود فكيف انت وكيف حالك؟ قال عبود: بخير يا شيخ غير ان ديونا كانت علي فانتهره ابو محمد فقال له: ان كانت عليك ديون أفنتيني؟ ابعد عني يا عبود فأنه باسمه فرجع الى منزله فاخبر علي بن يخلف اخا ابي الربيع ان ياتيه بمن يشتري غنما له ومطمورة شعير فاتاه بمن يشتريها فقضى منها ديونه»⁽¹⁾.

تم استعمال غرفة القصر وهي «ماركين» و«تماديلت» لخزن محصول الشعير، «وروي عنه انه انكسرت غرفته وأكلها السراق فوجدها من الغد كذلك فقال الحمد لله اذا كان هذا منهم لم يكن منا»⁽²⁾.

يتفنن ساكنة نفوسة في صنع خبز الحراري من الشعير وبيعه بالأسواق ويذكره الجغرافيون مثل ابن حوقل حيث يقول: «وأما جبل نفوسة فجبل عال منيف يكون نحو ثلاثة أيام في أقل من ذلك وفيه منبران لمدينتين تسمى إحداهما شروس وسط الجبل وبها مياه جارية وكروم وأعناب طيبة وتين غزير وأكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون وإذا خبز كان أطيب طعاما من خبز الحنطة ولشعيرهم لذة ليست من أخباز الأرض لأنه ينفرد بلذة ليست في خبز إلا ما كان من سميد أو حواري قد تأنق صانعه فيه»⁽³⁾.

(1) الوارجلاني، سير الأئمة، ج2، ص 287.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 126.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1992، ص 92 و 93.

وقد أعجب هذا الخبز كل من مرّ بهذا الجبل، يقول الوارجلاني: «مررت أنا وخالي عبود بن منار ذات مرة على أبي جعفر فهو يبيده على جيبه فاخرج منه صرة دراهم فناولنا إياها وقال: امضيا إلى السوق واشتريا خبزاً نقياً حراري قال: فقلنا له: تغذينا بعد يا شيخ فقال: الحمد لله، فرد صرته إلى جيبه»⁽¹⁾.

ولأجل تنظيم الشأن الاقتصادي إبتكر النفوسيون وظيفة المحتسب الفلاحي ومهمته تفقد الضياع والمزارع، حيث يقول الدرجيني: «كان أبو منيب محمد بن يانس مستجاب الدعاء وله من الكرامات العجب العجائب وقد شغل خطة محتسب بجبل نفوسة وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسباً»⁽²⁾.

تبلغ الغراسة ذروة قيمتها عند الشيخ أبي خليل الدركلي الذي يضع الموت أثناء الغرس في أفضل مواقيتها لبركة العمل الذي يقوم به وربما ذلك أعظم درجة عنده من الموت في ساحات الحرب يقول البغطوري: «وان قدرت أن لا يصيبك الموت إلا في حفر الغرس فأفعل»⁽³⁾.

لم يتوقف الإشعاع النفوسي عن العمارة والبناء، بل نقل النفوسيون خبرتهم في مجال الزراعة إلى المناطق الأباضية المجاورة، حيث قام إباضية جبل نفوسة باستصلاح أراض إضافية خارج جبلهم في بلاد سوف واريغ من أرض تاهرت، وذلك بإحيائها عن طريق حفر الآبار وزراعة النخيل بها، فجعلوا منها منطقة حيوية ذات اتصال مباشر ببلاد

الجريد ووارجلان جنوباً، وجبل نفوسة وما ولاها شرقاً ويرجع سبب استصلاح هذه الأرض أن ألف رجل من إباضية جبل نفوسة خرجوا على الإمام عبد الوهاب، فكتب إليهم يسترضيهم، وأقطع لهم هذه الأرض مقابل حرثها وزراعتها، فهدأت ثائرتهم فرحا بهذه الأرض وأصبحت مستقراً وموطناً لهم بعد إحيائها.⁽¹⁾

يؤكد الوسياني هذه الواقعة التي أدت بموجبها انتقال خبرة الجبالية في مجال الزراعة إلى المناطق المجاورة، حيث يقول: «وذكر عن الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه كتب إلى نفوسة الراحلين من الجبل كتاباً وهم الخارجون عنه وكانوا في ألف رجل وخاف مما قد يعتريهم من التغير والتشتيت فكتب إليهم كتاباً مع عامله عليهم وأقطع لهم أرضاً كثيرة، وهي هذه الحدود التي تذكر: بازدقلورية إلى تنوجدت إلى قبر الصياد إلى فج المصاييح إلى زيتونة الصعايفر لنا وللمسلمين اغرسوا فيه بأمرنا واحرثوا فيه بإذتنا، قال أبو محمد قال أبو زكريا يحيى بن ويعجمن: إن الساحل كله داخل في هذه الحدود الأربعة. فنزلوه وقطنوه فيه ومن معهم، وهم أبرك خلق الله، وأزكى وأطيب وأجدر الأدباء، وأطوع الطائعين منهم إلى يومنا هذا، فيهم الإبرار والآدب ببركة الإمام نصر الله وجهه، وقدس روحه، وبرد ضريحه، والمسلمين والمسلمات أجمعين. آمين يا رب العالمين»⁽²⁾.

(1) الوارجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ص 244، 249، الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج 2، ص 331، انظر أيضاً: بحاز (إبراهيم)، الدولة الرسمية، ص 154.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 352.

(1) الوارجلاني، سير الأئمة، ج 2، ص 298.

(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2، ص 297.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 93.

لقد مثل جبل نفوسة خزّان حضارة الإنسان الواصلة بين بلاد النيل وبلاد إفريقية وبين الساحل والصحراء، بفضل موقعه المهم كما مثل جسرا تعبر منه تأثيرات المدنية القادمة من الساحل الطرابلسي وتأثيرات البداوة الوافدة من الصحراء.

3 - تحولات الاقتصاد النفوسي:

أ/ القطيع والزيتون: صراع بين نمطي عيش:

نظرا لضيق المساحات الزراعية في ظل توسع القرى والمدن على غرار جادو وشروس وقلة الأمطار بهذه المناطق المتاخمة للصحراء فإن صراعا نشأ بين القطيع والحقل، فرغم جفاف هذه المناطق فإنه في السنوات المطيرة يصبح الجبل والمناطق المحيطة به أراض خصبة، لذلك ترتفع أعداد قطعان الماشية في بعض الأوقات وتنوع من الغنم والماعز والبقر والإبل والحمير وقد أكد الشماخي على ارتفاع عدد القطيع بجبل نفوسة⁽¹⁾ وكانت الملكيات الكبيرة بيد عدد محدود من الملاكين العقاريين أمثال الشيخ أبي عثمان أحد ميسوري الاباضية بالجبل وكان يملك غنما كثيرة⁽²⁾.

ترعى الأغنام حيث تصيب الكلاء في سهل الجفارة وخاصة بالظاهر وإذا كان العام مطيرا، يمتد موسم الرعي من الخريف إلى بداية الصيف، حيث تقترب قطعان الأغنام من مضارب نفوسة في قرى الجبل وهو ما يشكل خطرا على الغراسات ويثير صراعا بين القطيع والغراسات فيجتهد الشيوخ في ابعاد أذى الغنم عن غابات الزيتون، « وروي انه

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 341.

(2) البغطورى، مصدر سابق، ص 111.

وجد غنما في الخط تحت زيتونه فقام فيها يهش عليها بثوبه فطردها حتى ادركه العطش ولحقه الحر فوق صريعا وكان صاحب الغنم قد تبعه بدلو من ماء فأغاثه به حين وقع فشربه الشيخ حتى روي وأعطى الرجل رزقه من هناك فبقيت بركة دعاء الشيخ في ذريته إلى يومنا هذا فيما قيل⁽¹⁾.

كما نجد البقر كما الغنم، يشكل تهديدا للغراسات حيث «ذكر أنه (أبو نوح سعيد بن يخلف) رأى بقر الناس في زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع»⁽²⁾.

وفي إطار هذا الصراع يستعمل الحصان لحماية الحقول من تعدي القطعان، حيث يقول الدرجيني: «ذكر أنه رأى بقرا في زرع لغائب فأخرج البقر وطرده عن الزرع، وهو على فرس أنثى يتبعها مهر، فلم ير على نفسه حرجا في دخول فرسه ومهره في الزرع، لأنه إنما قصد بذلك إزالة الضرر عن الزرع»⁽³⁾.

كما وصل حد تعدي القطيع على الزيتون إلى سجن أبي زكار صهر الشيخ أبي محمد التغميني الذي كان حاكما للجبل بسبب رعي غنمه في الحقل⁽⁴⁾.

دفعت الأهمية الكبيرة لشجر الزيتون الفلاحين إلى العناية به في سائر الأيام حيث تنافس القطيع والزيتون خاصة مع ضيق المجال

(1) البغطورى، نفسه، ص 150.

(2) الدرجيني، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 368.

(3) الدرجيني، نفسه، ج 2، ص 414.

(4) الشماخي، مصدر سابق، ج 2 ص 396.

الجبلي ما دفع بقطعان الماشية إلى مغادرة الجبل نحو الظاهر أو نحو الحمادة الحمراء في الجنوب.

تدل الشواهد المصدرة على صراع بين نمطي عيش هما الزيتون الذي يحيل على الاستقرار وما يترتب عن ذلك من قواعد اجتماعية وقوانين اقتصادية جديدة تتعلق بالملكية وبمهارات وحرف جديدة وبين القطيع الذي يحيل على الترحال وعلى الكلاء وغياب الاختصاص بالأرض وعلاقات الإنتاج التقليدية.

تعد الأرض مصدرا مهما للثروة وتشهد تنافس نمطين من العيش نمط ينحو إلى الاستقرار ونمط مرتحل بينما تعد التجارة مصدر ثان للثروة تتنازعها الجماعات الاباضية الرابضة على تخوم الصحراء والمشرقة على الطرق التجارية مع السلط المتعاقبة.

ب) من علاقات الإنتاج العبودية إلى المشاركة أو «نظام المشيطن»:

مثل القطيع المصدر الأول للثروة لذلك كان عدده كبيرا وملاكه كثر، إلا أن الملكيات كانت متباينة، حيث نجد الملاكين الكبار الذين يتوفرون على آلاف الرؤوس من الماشية ويقوم عبيدهم بخدمة القطعان، بينما يشترك الفلاحون الصغار وهم أكثرية في قطع واحد يرعاه راع مشترك، وكثيرا ما نجد شيوخا يملكون قطعان الماشية⁽¹⁾.

ونظرا لأهمية قطاع الرعي عمل مشايخ المذهب على تنظيم شؤون سوق المواشي عند تدخل الفاطميين بالمجال الجبلي: «روي عن أبي يوسف انه كان هو الذي يأذن لمن يبيع الغنم في سوق جادو، وفي

عصره أحدث المشايخ ذلك من شأن دخول أتباع المسودة واختلاف الأمور»⁽¹⁾.

يزاول أغلب النفوسيين النشاط الفلاحي وخاصة زراعة الحبوب حتى أن ذلك تسبب في هزيمة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في معركته مع محمد بن الأشعث فقد تجمع لابن الخطاب حوالي 70 ألف مقاتل من نفوسة وهوارة وجريشة إلا أن تمويه ابن الأشعث بالانسحاب قد دفع جيش ابن الخطاب إلى الانصراف لمزاولة أعمالهم الفلاحية وكان وقت حصاد⁽²⁾، كما يمثل فترة هدنة من الحروب فقد اضطر عبد الحميد الجناوني إلى انتظار انتهاء الموسم الفلاحي حتى يعيد الكرة في حربه مع خلف بن السمح.

عرف المجتمع النفوسي تواصل العلاقات الاقتصادية التقليدية التي تقوم على استخدام فئة العبيد الذين كانوا طاقة العمل وجزءا رئيسيا من البضاعة القادمة من بلاد السودان وكان العبيد يعيشون ظروفًا مزرية⁽³⁾، إلا أن هذه الوضعية المهينة لم تمنعهم من التعبير عنها وهو ربما مؤشر على التحولات العميقة للمجتمع النفوسي نحو علاقات اقتصادية إقطاعية بدأت سماتها تظهر، فقد قال أحد العلوج لسيده: «فما الذي بلغ فيكم فقال له يا مولاي فما يبلغ فينا أن تأكلوا القمح وتاكل الشعير وتلبسوا الكتان وتلبس الصوف وإنما يبلغ فينا أن نبلغ الذوافة فما كان أحد يسأل فينا مثل الكلاب»⁽⁴⁾.

(1) البخطوري (مقرين)، مصدر سابق، ص 135.

(2) الوردجاني (أبو زكرياء)، مصدر سابق، ص 68.

(3) البخطوري (مقرين)، نفسه، ص 97.

(4) البخطوري (مقرين)، نفسه، ص 119.

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، مصدر سابق، ج 2 ص 341.

استعمل النفوسيون العبيد في الفلاحة بالإضافة إلى أعمال البيت من خدمة أهله، وأحيانا تقوم الأرستقراطية الفلاحية باللجوء إلى أعمال السخرة وهو ما يدعو إلى مقارنة نمط الاقتصاد المغربي بالإقطاع الأوروبي.

فيما يتعلق بالملكية الفلاحية، يمتلك النفوسي ضيعته من الغراسات كالزيتون والتين والنخيل ولكنه يشارك مع عشيرته في السهل لزراعة الحبوب كما يشاركون في المرعى أينما وجد الكأ والماء.

تتمثل ملكية الأرض في الملكية الفردية والعائلية وتتحدث أغلب نوازل الفرستطائي عن الملكية الجماعية مثل «الملك المشاع» و«ملكية العامة» وبالتالي نحسب أن أنواع الملكيات كلها توفرت في جبل نفوسة وإن كان المجال جبليا ضيقا ووعرا وهو ما أدى في كثير من الأحيان إلى نزاعات حول الأرض تعرض لها الفرستطائي في كتابها ويدل وجود كل هذه الأصناف من الملكيات وهذا النزاع على الأرض إلى تحولات الملكية تبعا للتحولات الاقتصادية-الاجتماعية التي اعترت المجتمع النفوسي.

كان كبار الملاكين يشتركون مع صغار الفلاحين فيكون على الملاك الزريعة، بينما يتكفل الفلاح بالبذر والحراثة ويتم الاشتراك في المحصول مناصفة عند الحصاد وهي إحالة على بروز نمط إنتاج إقطاعي يتمثل في العمل بحصة من الإنتاج التي تصل إلى الشطر وهو النصف، فهذا العامل الفلاحي شريك في المحصول بمجهوده البدني، يقول الوردجلائي: « وذكر عنه أنه دفع لمشيتر له شعيرا أو زريعة ليزرعها في حديقة له فكان ابو جعفر يسال المشيتر ما فعل الزرع فيقول المشيتر بخير يا عمي ابا جعفر فلما حضر اوان الحصاد زار ابو جعفر حديقته لينظر الى زرعه فلم يجد شيئا فتلقاه المشيتر بكلام

مغضب قال : يا عمي ابا جعفر أزرع لك الزرع ويموت أولادي جوعا؟ فخرج ابو جعفر وهو يقول : سلاما سلاما لقله عز وجل : «واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»⁽¹⁾.

ومن القوانين المرافقة لحراثة المطيرة بالتشارك بين المالك والزراع في المجال الجبلي أن الزراع لا يدفعون زكاة المحصول⁽²⁾.

كثيرا ما يشترك الملاكون الصغار في القطيع، حيث يعهدون إلى راع واحد لأخلاط الغنم، يقول الفرستطائي: «وإذا استرعى ناس كثيرون لحيوانهم راعيا مثل الغنم والبقر والإبل فإن القول في هذا كله قول الراعي مادام في الرعي. وذلك مثل إن أضاف إلى كل واحد منهم عددا معلوما، أو شخصا معلوما، فالقول فيه قوله في كل ما لم يتبين له أنه لكل واحد منهم دون الآخرين. وأما كل ما تبين له أنه لبعضهم دون بعض فلا ينصت إليه»⁽³⁾.

يملك الشيوخ مزارع الشعير بينما يمثل العزابة يد عاملة فلاحية⁽⁴⁾، كما يحظى خرط الزيتون بالعناية فيشارك فيه الملاك والعمال وهم من العبيد ومن العزابة⁽⁵⁾.

(1) الوردجلائي (أبو زكرياء)، مصدر سابق، ص 297، 298. أنظر أيضا: شرف الدين (لمياء محمد سالم)، بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، بنغازي ليبيا 1999، ص 186.

(2) البغطوري (مقرين)، مصدر سابق، ص 34.

(3) الفرستطائي (أبو العباس)، كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بالحاج و محمد صالح ناصر، ط 2، الجزائر 1997، ص 98.

(4) الوسياني، مصدر سابق، ج 1 ص 270.

(5) البغطوري، نفسه، ص 54.

المبحث الثاني

التجارة والخفارة

1 - السوق والتجارة:

يحتل جبل نفوسة موقعا مهما حيث يتوسط المسافة بين المغرب والمشرق الإسلامي كما أنه يمثل بوابة المدن الساحلية المتوسطية على الصحراء وبلاد السودان، لذلك استفاد الجبل كثيرا من قربه من المدن التجارية الكبرى مثل صبراته وخاصة طرابلس التي مثلت منفذ السلع النفوسية إلى أوروبا كما أن الجبل لم يكن بعيدا عن القيروان عاصمة الغرب الإسلامي في تلك الأزمنة⁽¹⁾.

تعد التجارة أهم نشاط اقتصادي لذلك اهتمت الإمارة الرستمية بالتجارة الصحراوية القوافلية في فترة حياتها بين 160 هـ و 296 هـ / 777 م و 909 م فأرسلت الجيوش لحمايتها وأنشأت الآبار في الصحراء على طول الطريق التجارية، حيث يقول الباروني أن أبا حاتم في حياة والده أبي يقظان كان يقود جيشا «من وجوه زناتة لمحافظة قبائل أقبلت من المشرق فيها من الأموال ذهبا وبضائع ما لا يحصى خوفا من اعتداء سفهاء زناتة عليها إذ كانوا مخيمين بطريقها»⁽²⁾.

(1) مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21 - 442 هـ) (642 - 1052 م)، مؤسسة تالوت الثقافية 2003، ج 2 ص 206-207.
(2) الباروني النفوسي (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك

يحدثنا الدرجيني عن حرفة الجنان والمقصود به الزراعة الذي يقوم بزراعة الشعير وغيره⁽¹⁾، وهي مهنة ارتبطت بخبرة الجبالية وممارستهم الطويلة للنشاط الفلاحي المستقر.

وتتحدث بعض النصوص المصدرة عن الأجراء والمقصود بهم الخماسة وقد كان الأجراء أصحاب وضع مهينة: «وذكر أن نفوسة لما قتلوا في وقعة مانو فبقي من بقي منهم ولم يجدوا من يبين للناس أموالهم من الأشجار إلا العسفاء يعني الأجراء فكانوا يقولون لهم: وهم فلان فأس وفلان زحف وفلان أشبر فحكموا بهم أينما وجدوا السيمة على ما قالوا»⁽²⁾.

(1) الدرجيني، مصدر سابق، ص 404.
(2) الوسياني، نفسه، ج 1 ص 272.

لقد كانت مهمة حماية القوافل جسيمة ما دعا قادة الدولة الرستمية إلى الإشراف عليها، حيث يقول الوردجاني: «كان يوسف بن محمد في عهد أبيه على رأس جيش من زناتة لحماية القوافل التي تقبل من الشرق أو تقصده حاملة الذهب»⁽¹⁾.

كما كان حكام الإمارة الرستمية يشاركون في التجارة لأهميتها مثال أفلح بن عبد الوهاب حيث يقول الوسياني: «وأنه مع ذلك أراد السفر إلى جوجو (كوكو) فلما برز رحله خرج إليه الإمام عبد الوهاب والده فرمى عليه السؤال من مسائل الربا حتى وقف في مسألة واحدة قال له: ارجع لثلاث تطعمنا الربا، فرجع. فهذا أفلح خاف عليه والده أن يرتطم في الربا مع تفحصه لفنون العلم وإدراكه الغوامض حتى قالت فيه العلماء: لو لم يكن في هذه الجزيرة إلا هو لتبعته المذهب»⁽²⁾.

يمثل جبل نفوسة جزء هاما من الإمارة الرستمية لذلك اعتنى أهله بالتجارة خاصة لما وفره القطيع والإنتاج الزراعي وكذلك الحرف التي أتنقها النفوسيون كصبغ الأكسية التي كانت بيد اليهود أما النساء فكان يغزلن الصوف⁽³⁾، يقول الوسياني: «والثالثة إذا عملن غزل صباغ اليهود في المنسج وغيره انتقض عليهن من مس ذلك لأن اليهود نجس

الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041 عدد القسم الثاني، مطبعة الأزهار البارونية، ص 265. أنظر أيضا: حسين (أحمد إلياس)، دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ص 16.

(1) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 149.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 فقرة ج 8/13.

(3) الدررجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 303.

فقال لهن: أيما امرأة مسّت صباغ اليهود ليس عليها إلا غسل يديها وكفيها وليس عليها إعادة الوضوء»⁽¹⁾، وفر كل ذلك سلعا هامة للتبادل التجاري بين مناطق الجبل وبين الأمصار وبين البلدان والأقطار.

أدت حيوية هذا النشاط إلى اهتمام الفقهاء به لتنظيمه وتخليصه مما يلحق به من الشوائب حتى قال الفقهاء: «إذا دخل السوق ربية فدىع الشراء ثلاثة أيام ثم لا حرج بعدها في الشراء»⁽²⁾، وزاد الفرستائي فتحدث عن المشاركة في التجارة وعن القروض بين التجار وغير ذلك⁽³⁾.

تشتهر عدة قرى ومدن بأسواقها، فقد كانت المراكز الكبرى مثل شروس وجادو ويفرن تمثل أسواقا هامة في الجبل حيث يتحدث البكري عن bazارات كانت موجودة بجادو ويفرن نظرا لموقعها على الطرق التجارية الكبرى وللدور التجاري للقصور التي أخذت شهرة كبيرة في إقامة الأسواق فيها⁽⁴⁾.

يشارك النفوسيون بسلعهم في التجارة بين الأمصار، حيث يتحدث ابن حوقل عن أسواق طرابلس وما تجلبه من المناطق المجاورة مثل جبل نفوسة: «وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره... وبها الجهاز الكثيرة من الصوف المرتفع وطيقان

(1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 248.

(2) الدررجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 472.

(3) الفرستائي (أبو العباس)، كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بالحاج و محمد صالح ناصر، ط 2، الجزائر 1997، ص 95-96.

(4) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، ج 2 ص 655-656.

الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة إلى مراكب تحط ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مَرِّ الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم»⁽¹⁾.

كان الزيت مادة أساسية في تجارة أهل نفوسة إلى القرى والأمصار المجاورة، «وذكر عنه انه اصطحب مرة مع المسافرين إلى درج وليس معه زاد وكان معه رجل من أهل منزله فاذا أراد أهل الرفقة أن ياكلوا دعاه فأكل حتى كان يعرض يوم من الايام عيا جملة من الضعف فتخلف عن الرفقة فقال للشيخ قد رأيت ما حل بجملي وليس فيه ما يوصلني فأناؤه الشيخ ونزع الحوية عن ظهره ونفث على ظهره وتكلم بكلمات ثم رد عليه الحوية وردوا عليه حملة فكان في أول الرفقة حتى وصلوا. قال ووجد ظرفه الذي يأكل منه الشيخ قد أمتلأ بالزيت فعلم عند ذلك بركة الشيخ وباع اصحابه زيتهم وشاور الرجل الشيخ في بيع زيتة فقال له الشيخ لا تبع ثم بعد ذلك دخلت عليهم رفقة آخرون يطلبون الزيت فباع لهم وبيع مالم يربحه اصحابه كلهم»⁽²⁾.

كان الشيوخ يتاجرون بين الأمصار بالمواد الإستهلاكية الأساسية مثل الزيت، كما كان يفعل أبو المنيب مامد بن يانس، «وبلغنا عنه انه كان ذات مرة بمصر فسمع رجلا يقول انا بالله والسلطان فلم يغثه احد ثم قال ايضا انا بالله وبأهل المُرَّة فلم يغثه أحد ثم قال انا بالله وبالمسلمين أو الإسلام وكان ابن يانس وقتئذ يفتح زق زيت لبيعه

فتركه كما هو واقفا مفتوحا وأسرع إلى الرجل الداعي المستغيث فوجده قد أخذه اعوان السلطان فنزعه منهم»⁽¹⁾.

كما شارك الشيوخ في التجارة القوافلية الصحراوية إلى بلاد السودان: «وروي عنه انه سعى وكسب مالا كثيرا وكان يسافر إلى تادمكت بالسودان وانه كان إذا وقع في الشعبة بالشراء فيشتري فيها طالعا ونازلا ويمينا وشمالا فيصير فيها كالحصان الاجود»⁽²⁾.

نظرا لأهمية التجارة الصحراوية القوافلية باتجاه بلاد السودان وما تدر به من الخير على كل مشارك فيها لذلك ضرب أكباد الإبل كل من استطاع أن يسير قافلة من أئمة وفقهاء وشيوخ وعلماء وطبعا التجار الذين يقطعون الصحراء والقفر، يحملون الملح ويعودون بالذهب وقد نقل صالح معيوف عن الوزان وجود الملح بجبل نفوسة وهو سلعة تبادلية رئيسية في بلاد السودان⁽³⁾، كما يخبر التجاني عن توفر مادة الملح قبل القرن 8هـ / القرن 14م وهو متوفر إلى اليوم بالسبخا على الحدود التونسية الليبية حيث يقول: «وهناك السبخة المفضل ملحها على كل السبخا»⁽⁴⁾.

ويرتبط جبل نفوسة بالمدن والمناطق الهامة عبر مسالك تجارية كبرى وتتمثل في:

(1) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 91.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 51.

(3) مفتاح (معيوف صالح)، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من منتصف القرن الثاني هجري إلى أواخر القرن الثالث هجري)، مؤسسة تالوت الثقافية 2006 ص 53.

(4) التجاني، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب تونس- ليبيا 1981 ص 206.

(1) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص 71 و 72.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تالوت، المغرب 2009، ص 69.

- طريق جبل نفوسة وارجلان: كانت العلاقات التجارية مزدهرة بين المناطق الإباضية منذ عهد الدولة الرستمية، وارتفعت وتيرتها عندما سقطت دولة الرستميين نهاية القرن 3هـ / بداية القرن 10م عندما فرّ من تهاورت من التجار والميسورين إلى الجنوب وسكنوا وارجلان وأسوف وأريغ، وينقل المزهودي عن الإدريسي أهمية هذه الطريق التي يمتد طولها على 15 مرحلة ورغم بعد المسافة فقد كان التجار يتكبدون مشقتها لما تدره التجارة من أرباح وما في ذلك من توطيد لأواصر العلاقة بين المناطق الإباضية⁽¹⁾.

- طريق جبل نفوسة نفزاوة: وهو احياء للطريق الرومانية تكابس - فيري القادمة من منطقة القصور بالجريد مرورا بقابس ثم تعبر جبل دمر ثم جبل نفوسة عبر لالوت وشروس فيما باتجاه غدامس أو إنعطافا إلى طرابلس.

- طريق السودان: وهو قادم من إفريقية ويمر عبر لالوت وشروس بجبل نفوسة ثم يتجه إلى غدامس وقد كانت غدامس إحدى مناطق النفوذ الإباضي ومنها إلى تادمكة وكوكو ببلاد السودان الغربي، يقول البكري: «ومن تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء، والماء فيها على مسيرة والثلاثة أحساء... وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء وبين نفوسة ومدينة أطرابلس ثلاثة أيام»⁽²⁾.

(1) مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21 - 442هـ) - (642 - 1052م)، مؤسسة تالوت الثقافية 2003، ص 207 - 208.

(2) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، ج2 ص 881.

- طريق جادو: حيث كانت الطريق القادمة من طرابلس تمر عبر جادو التي اشتهرت بأسواقها الكبيرة وبأنها محطة مهمة على الطريق القوافلية ثم إلى زويلة التي احتلت مكانة تجارية هامة بفضل موقعها، يقول اليعقوبي: «ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة، وهم قوم مسلمون أباضية كلهم. يحجون البيت الحرام وأكثرهم رواية ويخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم، وهم يسبونهم وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب ومن زويلة الجلود الزويلية وهي أرض نخل ومزدور ذرة وغيرها وبها أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة»⁽¹⁾ ومنها إلى كوار ثم إلى زغاوة ووادي أو إلى بحيرة التشاد.

يعد الذهب من أهم السلع المتبادلة وقد ضرب الإباضيون السكة كما يخبر بذلك الإدريسي حيث يقول: «هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية إباضية»⁽²⁾.

يعدّ العبيد مادة تجارية على غاية من الأهمية بالنظر إلى الدور الاقتصادي لهذه الفئة فهي طاقة العمل الرئيسية رغم أن العصر الوسيط يشهد تحولات ذرية في مستوى علاقات الانتاج ببروز الخماس والمشيطر ومع ذلك تحظى فئة العبيد بمكانة هامة كقوة عمل أساسية،

(1) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، كتاب البلدان، ج 1، ليدن، 1890، ص 134.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1 ص 296.

يقول البغطوري، «فقال ما تقول يا أبا هارون فيمن جلب الخدم من بلاد الشرك فتسرّى واحدة منهن فأنت بأولاد سود مثل الزيتون، فهل يلزمه قال نعم فضحك من ضحك في المجلس فقام أبو حسان وهو يقول الضحك في المجلس! فقال أبو هارون للضحك: حرمتنا الفوائد يا رجل»⁽¹⁾.

في السنوات العجاف يلتجئ الشيوخ إلى الواحات لشراء الطعام من ذلك أن أبا زكرياء «أرسله أبوه ليمتار له التمر من بني يزمرتن في سنة ممحلة ذات جذب وقحط»⁽²⁾.

كما تم جلب ريش النعام والعاج من الجنوب بينما يحمل المغاربة الملح والحبوب والزيتون والعسل والتمور والمنسوجات الصوفية والحريرية والمنتجات الحيوانية كالجمال من شمال القارة.

ربطت الدولة الرستمية علاقات تجارية بالسودان وذلك بواسطة القوافل التجارية التي كانت تخرج من وارجلان قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء وكان تجار الدولة الرستمية يحملون منسوجات الصوف والقطن والكتان وأواني الزجاج والفخار والخزف ذي البريق

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 39.

أهل المغرب ومنهم أهل نفوسة يسمون الأمة الخادم وليس الخادمة وهي خصوصية مغربية يقول البغطوري: «وروي أن رجلا من الجبابرة بعث هدية إلى عبد الوهاب، طعاما وخادماً فقال: أن الفرس اعطوا عقلا وفهماً فقال: لهم عبد الوهاب اطعموهم من الطعام الذي جاؤوا به واتركوا منهم رجلا واحدا فلما اطعموهم منه ماتوا بالسّم فأرسل بنفسه إلى الخادم وبه سوط وقال لها: أصدقي ما أنت فيه فاخرجت مكحلة فيها سم أخرجتها من رأسها وردّ ما بقي من الطعام مع الرجل الذي بقي والخادم». أنظر: مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 104.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 254.

المعدني والملح وسيلة التبادل الرئيسية إلى بلاد السودان وذلك لندرته عندهم فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية⁽¹⁾.

نجد ثلاثة أصناف من التجار وهم التجار الذين يجوبون الأمصار وشيوخ الأباضية الذين يسافرون للتجارة وللدعوة مثل الشيخ الفزاني الذي كان يتنقل بين الجبل وبلاد السودان «والمصائب أبو معروف في عينه وبعث إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني وهو عالم كبير من علماء أهل الدعوة وكان في بلاد السودان مسيرة شهر من جبل نفوسة»⁽²⁾، وكذلك اليهود الذين استوطنوا المدن التجارية بشروس وجادو.

يقول الباروني عن دور النفوسيين في التجارة مع بلاد السودان: «وهم تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأقاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع»⁽³⁾.

كان الشيوخ من أبرز المتدخلين في تجارة مع بلاد السودان، «وروي عنه (أبو القاسم البغطوري) أنه سعى وكسب مالا كثيرا وكان يسافر إلى تادمكت (بالسودان) وأنه كان إذا وقع في الشعبة بالشراء فيشتري فيها طالعا ونازلا ويمينا وشمالا فيصير فيها كالحصان الاجود»⁽⁴⁾ وقد بدت

(1) سالم (السيد عبد العزيز)، كتاب المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت 1981، ج2، ص 573.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1 ص 242.

(3) الباروني النفوسي (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع14041-دد القسم الثاني، مطبعة الأزهار البارونية، ص 185.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 51.

النعم ظاهرة على الشيوخ ومنهم أبي القاسم بن يزيد الذي كان يتنقل للتجارة بين نفوسة والقيروان⁽¹⁾.

أما على المستوى الداخلي فقد كانت التجارة بيد بعض الشيوخ أمثال أبي معروف ويدران الشهير بمسجده في شروس، «وذكر غير واحد أن أبا معروف كان يتجر في حانوت فكان دأبه إذا وزن للناس أوفى من ماله خروبة وإذا أراد أن يأخذ منهم لنفسه أنقص خروبة فلما حضره الموت أوصى بعشرين دينارا لحوطة الميزان»⁽²⁾.

ساهم مناخ الأمن المتوفر خاصة في عهد الإمارة الرستمية وزمن قوة نفوسة في ازدهار التجارة الصحراوية خاصة بالجبل وهو ما دفع فئات عدة منها اليهود للمشاركة في التجارة والإثراء من هذا المورد الإقتصادي حيث يشارك اليهود في تجارة التفصيل⁽³⁾.

كما ساعد انفتاح المجتمع النفوسي بفضل موقعه إلى عدم إقصاء الأقليات الدينية كاليهود بل ساعدتهم هذا الوضع إلى الإثراء، «وقيل عنه أن يهوديا من تجار جادو من المترفين وجد أبا يحيى هذا اخذ دقيقا

وخلطه بماء لغذائه فوجده يأكل فيه فعرض عليه أن يأكل معه وقال له: انه طيب، قال اليهودي: فأخذت منه فأكلت فما وجدت أطيب منه»⁽¹⁾.

أدى هذا الموقع المهم للجبل على خريطة التجارة الصحراوية إلى ازدهاره وتوفر المعادن المختلفة التي كانت تصنع منها السكة، حيث تم ضرب العملة وتتمثل في فلوس من نحاس كتب على الوجه «ضرب هذا الفلوس بأفريقيا» وعلى الظهر «سنة اثنتين وأربعين ومائة» وتواصل هذا الأمر إلى سنة 144 هـ / 761 م وذلك في عهد أبي الخطاب المعافري ويرجح أن يكون جبل نفوسة قد استعمل هذه العملة في هذه الفترة بينما تكون دار الضرب في طرابلس خلافا لما ذهب إليه عوض الشرقاوي⁽²⁾.

تتم المعاملات الاقتصادية بالقراريط وهي دراهم الحندوس ذلك أن «القراريط في أوزان الذهب والدرهم في الفضة»⁽³⁾، كما كان يتم التعامل بالمقايضة، فبالإضافة إلى الذهب والفضة فقد تم «التعامل بالملح أيضا كقطع العملة ويتصارف به كما يتصارف بالذهب والفضة»⁽⁴⁾.

(1) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 207. «وبلغنا أن رجلا من نفوسة نظر إلى أبي القاسم (يزيد بن المخلد) راكبا على دابة عليها سرج محلاة بالذهب بزينة حسنة ... وكان له عشرون حملا وخلخل يسافر بهم إلى القيروان»

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 243.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 77.

(4) وذكر عن ابن أبي موسى أن رجلا من أهل ويغوا أعطى حمارته ليهودي ليبيعها له فباعها وأخذ الثمن»

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 131.

(2) الشرقاوي (عوض)، التاريخ السياسي والحضاري، ص 141.

(3) الدرجميني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 358.

(4) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 101.

أما على المستوى الداخلي فكانت المقايضة أهم طرق التعامل: «وذكر عنه أبو نوح أنه وجد امرأته اشترت كراثا بشعير، فقال لها: تشتري الكراث بشعير الزكاة يا مومنة. واسم امرأته مومنة»⁽¹⁾.

2 - من التجارة الى الخفارة:

مثلت التجارة الصحراوية مصدر ثروة رئيسي للجماعات الجبلية جنوب افريقية، حيث يحتل الهلال الجبلي (مطماطة - دمر - نفوسة) موقعا مهما فهو يتوسط المسافة بين المغرب والمشرق الإسلامي كما أنه يمثل بوابة المدن الساحلية المتوسطة إلى الصحراء وبلاد السودان ونظرا لهذه الأهمية الإستراتيجية فقد تعرض الجبل وساكنته إلى حصار العبيديين الذي دام اثني عشر سنة كما خاض الزيريون عديد الحروب والحملات العسكرية على زناتة من أجل التحكم في الطرق التي تعبرها التجارة الصحراوية وهكذا تراجعت مداخيل هذه التجارة على الجماعات الاباضية وتراجعت الأنشطة المتعلقة بها مثل النشاط الحرفي.

مثلت التجارة الصحراوية أهمية كبيرة في نشأة الدولة الرستمية وازدهارها كما تسببت في صراع الجماعات الاباضية مع الفاطميين والصنهاجيين من أجل التحكم في هذه الطرق⁽²⁾.

عرفت التجارة الصحراوية وجها آخر من وجوه المشاركة التي مثلها جبل نفوسة منذ العهد الرستمي وكذلك في العناية بحسن سير القوافل لما تدرّه مهمة تأمين الطرق التجارية من أموال تسمى الخفارة

(1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1 ص 252.

(2) ابن خلدون (ع)، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 325.

وهي أموال مقابل الإجارة والحماية علاوة على السلع القابلة للمبادلة، حيث قال الوسياني: «وذكر أنّ قافلة وقع عليها القطّاع فأخذوها ثم إنّ أصحاب القافلة والقطّاع اصطحبوا جميعا إلى جبل نفوسة في زمان ولاية إلياس وقضاء عمرو»⁽¹⁾.

ظهر ما يشبه علاقات الصحبة والحلف في فترة مبكرة قبل وفود الهلاليين على افريقية داخل المجتمع النفوسي وغيره من المجتمعات التي تقبع على تخوم الصحراء في المنطقة الانتقالية بين المدن والبادي، وذلك ابتداء من القرن 4هـ / القرن 10م، وخاصة بعد سقوط الدولة الرستمية وتعاظم المحن التي حلّت بجبل نفوسة من جراء الاحتراب المتواصل بين الزيريين وزناتة، حيث يورد الشماخي نصّا مهما في هذا الصدد يقول فيه: «ونابها (أم زيد) دينار من الخفارة ولم تجد مخرجا، فذهبت إلى أخيها في الله أبي محمد التغميني»⁽²⁾، فاشتغلت عن العبادة، فغار الأعرابي يومه ذلك في تمزدا، فضرب فسقط ميتا، فأراح الله منه العجوز»⁽³⁾.

يحتل هذا النص مكانة هامة، حيث يؤرخ لشكل من العلاقات كانت جل الدراسات تعيدها إلى ما بعد القرن 5هـ / القرن 11م وهي علاقات الصحبة والحلف وقد ربط الباحثون هذه العلاقة بأعراب بني هلال، إلا أن هذا النص يتحدث عن الخفارة وهي الحماية بمقابل مالي

(1) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009 ج 1، ص 232.

(2) أبو محمد عبيدة بن زارور التغميني عاش في النصف الثاني من القرن 4هـ / القرن 10م والنصف الأول من القرن 5هـ / القرن 10م، أنظر: الشماخي، مصدر سابق، ج 3، ص 1014.

(3) الشماخي، مصدر سابق، ج 2 ص 410. أنظر أيضا: البغطوري، مصدر سابق، ص 154.

ويبدو من خلال هذه الشهادة أن المبلغ المالي محدد سلفا ويبدو أيضا أن المبلغ مسلط على كل أهل القرية ثم يتم اقتسام المبلغ المالي بين السكان المستقرين بالتساوي فكان مناب أم زيد دينار نظير الحماية التي يوفرها الأعرابي وهو البدوي عامة من العرب ومن البربر فالخفارة أو الإتاوة الشخصية التي فرضها الأعراب أي البدو على شبه المستقرين والمستقرين هي التي مهدت لعقد الصحبة.

ارتبطت مسألة الخفارة في شكلها الجديد في الجبل بتراجع مكانة نفوسة التي انكسرت شوكتها بعد معركة مانوا المدمرة سنة 283هـ / 896م وهو ما مهد لهزيمة الرستميين وكذلك الأغلبة أمام العبيديين.

تعني الخفارة في الأصل مبلغا ماليا تقدمه القوافل التجارية الصحراوية نظير تأمين الطريق، لها إلا أنه منذ انهيار الدولة الرستمية وتدهور الأمن وتقلص موارد القبائل المحاربة تغيرت الخفارة من مكوس على القوافل إلى أداء على الرؤوس مقابل الحماية وهذه بدايات عقد الصحبة أو الحلف الذي سيطر فيما بعد على العلاقات الاجتماعية وتأسيس اقتصاد متكامل بين الرحل وأشباه المستقرين طيلة العصر الوسيط والحديث.

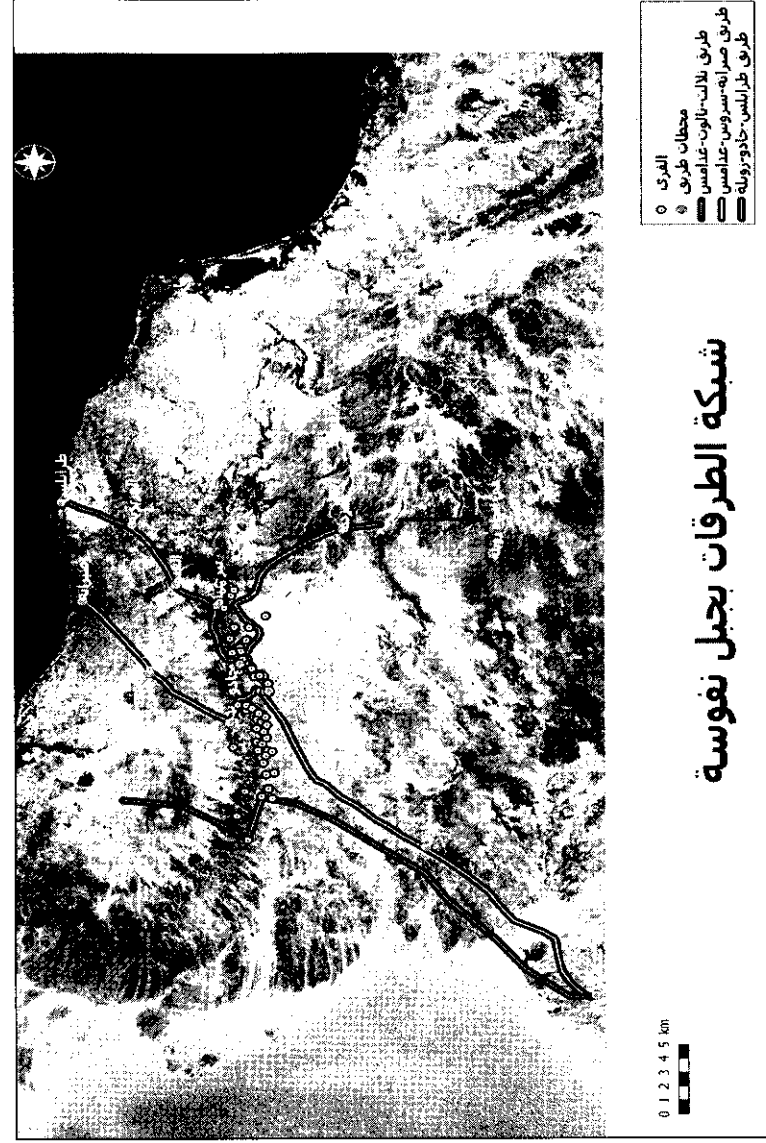
هكذا نفهم هذا الانتشار الواسع للقبائل البدوية زناتية وغيرها بجنوب شرق افريقية الذي لا يمكن تفسيره وفق مبدأ الهامشية المجالية كما هو في النظرية الانقسامية⁽¹⁾ ولكن يمكن أن يكون الدافع نمط العيش المرتحل وأهمية الموقع الذي يتيح القيام بدور ما في التجارة الصحراوية إما الوساطة أو الخفارة.

(1) حول فكرة الهامشية أنظر: بوطالب (نجيب)، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2002، ص 43.

تعد الزراعة والرعي والتجارة أهم الأنشطة الاقتصادية وأبرز مورد للأموال وقد أدى تراكم الأموال المتأتية من النشاط الزراعي إلى تحويل جزء منها إلى النشاط التجاري، وهو ما أدى إلى نشوء أرستقراطية محلية، فقد رافق التطور السياسي بوصول التحالف القبلي إلى السلطة والتطور الاجتماعي بالانتقال من مجموعة القبائل إلى شعب، تطورا اقتصاديا تمثل في تقسيم العمل بين الأرستقراطي وهو صاحب الأرض والمزارع وبين الحرف والزراعة وبين المدينة والريف⁽¹⁾. كما تعايش نمط إنتاج اقطاعي مع نمط إنتاج شبه مشاعي مع العبودي⁽²⁾.

(1) بن حسن (محمد)، القبائل والأياف المغربية، تونس 1986، ص 16.
(2) التيمومي (الهادي)، انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر مثال 1906، بيت الحكمة، تونس 1993، ص 30.

الفصل الثالث تواشج البنى الثقافية



يرتكز علم الآثار الاثنوغرافي على استثمار نتائج البحث الأثري في دراسة المجتمعات وتصنيفها والتعرف على مستوى تقدمها التقني والحضاري، بهذا المعنى تأخذ دراسة الآثار المكانة التي تستحقها حيث استفاد الباحثون في مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وخاصة الثقافي من الدراسات الأثرية في التعرف على مجتمعات الأزمنة الماضية واستخراج خصائصها فكانت حاسمة في المواقع التي غابت عنها المصادر التاريخية.

تتكون ثقافة نفوسة من الموروث البربري المحلي الضارب في القدم والدين الإسلامي الوافد بلسان عربي من جزيرة العرب وقد تداخلت هذه الروافد وتشابكت وانصهرت مع بعضها البعض لتنتج ثراء ثقافيا متفردا بكثير من الخصائص كما لا يغيب عنا ما للحضارات التي مرت على الجبل من تأثير وخاصة الرومان والديانة المسيحية وكذلك ثقافة البحر وثقافة الصحراء وقد مثل جبل نفوسة حلقة وصل بين هذه العوالم فتأثر بها وأثر فيها بدرجات متفاوتة.

استنادا إلى منهج أركيولوجيا المعرفة كما هو عند ميشال فوكو فإننا نجد عددا من الطبقات الثقافية الراسبة في وجدان النفوسي تشكل الثقافة العربية الإسلامية الطبقة الظاهرية لها.

سوف لن نتطرق لكل المسائل الثقافية التي ميّزت المجتمع النفوسي إلا أننا سنعالج موضوعات لم تأخذ حظها من الاهتمام أو تحتاج في ما رأينا إلى مزيد التوضيح.

صرامة نظام العزّابة وتحرّرو روح الجباليّة

يمثل النصف الثاني من القرن 3هـ / القرن 9م المرحلة الأخيرة في حياة الإمارة الرستمية، فهو طور الهرم والاضمحلال الذي تميز بأزمة اقتصادية وصراع على السلطة وحروب أهلية، فكان دور معركة مانو هو إنضاج تناقضات المجتمع النفوسي لتزيد من مشاكله وتدفعه نحو التراجع مما عجل بسقوط الدولة الرستمية الرافعة السياسية للمشروع الاباضي.

دفع هذا الوضع الجديد الزعامات الإباضية إلى تنظيم المجتمع النفوسي قصد تحصينه والحفاظ عليه في غياب إمامة الظهور (الدولة) وفي غياب أكثر العلماء الذين قضوا في مانو، حيث يقول الوردجلاّني: «ولم يبق من علمائهم وفقهائهم إلا أبو القاسم البغطوري وعبد الله بن الخير وهما اللذان يفتيان لأهل الجبل نوازلهم من تلك الوقعة، ولولاهما لعطلت إلى يوم القيامة»⁽¹⁾.

(1) الوردجلاّني، مصدر سابق، ج 1، ص 154.

1 - مجالس الذكر لتأطير المجتمع ودعاء الصالحاء لتعويض حكمة العلماء:

عمل من بقي على قيد الحياة من العلماء وقادة المجتمع النفوسي على تركيز مجالس الذكر قبل تأسيس نظام العزابة، ومن أبرز شيوخ القرن 4 هـ / القرن 10 م الذين أنشؤوا الحلقات هم: أبو الربيع سليمان بن هارون وأبو يحيى الفرسطائي وأبو زكريا بن سفيان اللالوتي وأبو هارون الجلالمي ... فكان أبو الربيع «يجعل لهم المجلس فاذا افرق المجلس اشتغل بالقضاء بين الناس إلى زوال الشمس فيقوم ويشغل بالصلاة»⁽¹⁾، كما نقل أبو الربيع المزاتي وصية عن شيخه أبي محمد عبد الله بن بكر الفرسطائي: «من كان يحضر مجالس الذكر، حرمت عليه مجالس الدنيا كلها»⁽²⁾.

تعمل مجالس الذكر على توجيه المجتمع وذلك عبر أسلوب التحذير والتخويف من سوء المصير وعذاب الله المقيم في الدنيا والآخرة، يقول الورجلاني: «وذكر (أبو الربيع يخلف) أن أكثر مجالس أبي عبد الله (محمد بن بكر) في التخويف والتحذير، وقيل له ذات مرة: هذا أمر شديد وضيق والنجاة منه عسيرة على ما ذكرت»⁽³⁾.

تقوم مجالس الذكر بمراقبة المجتمع وتحصينه الثقافي والوقوف على مدى التزامه بالفرائض الدينية، فكان الشيوخ يتابعون التزام القرى بصيام شهر رمضان وغير ذلك، لذا قد تصل عقوبة عدم الالتزام إلى السجن، يقول البغطوري: «وذكروا أن أبا الربيع تم عنده مشهور شهر

شوال فأكل بعض المنازل ولم يعمل البعض فسمع بذلك فخرج هو وعزابه إلى جادوا لشأن ذلك وأنه صام ذات مرة رمضان في جادوا واجتمعوا في القراءة والعبادة فقال لأبي عمر حجر عليهم أن لا يرقدوا في الليل فمن كسر حجرك فنزله في الحبس»⁽¹⁾، كما اشتركت النساء الصالحات صاحبات المال في إقامة مجالس النسك التي يحضرها الرجال وكنّ ينفقن على الشيوخ المعوزين.⁽²⁾

إضافة إلى مجالس الذكر التي مهدت لقيام نظام العزابة، توجهت ممارسات المجتمع النفوسي نحو الدعاء والاعتقاد في كرامات الصالحاء. وتعد كتب السير الأباضية بذكر كرامات الشيوخ الصالحين من المسيحية إلى الإسلام، فاستجابة دعاء شيوخ الصلاح عند الأباضية ركن من أركان المذهب ومعجزاتهم تتناقلها الأجيال وتحظى بالتبجيل والتقدیس، يقول الشماخي في سيره تحت عنوان، من كرامات جبل نفوسة: «...وبالجملة، أن جبل نفوسة احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد في غيره»⁽³⁾.

ونظرا إلى قداسة هذه المشاهد كان الحجيج يتجمعون فيها من عديد الجهات ويزورونها قبل التوجه إلى الحج، يقول البغطوري: «وكانت الطبقة التي بعدها مجتهدين في الحج والجهاد إلى تاهرت وكانوا إذا رجعوا من الحج لا يفترقون إلا من أذرف مكان يقال له تمصروة حتى يتفقوا متى يسيروا إلى الحج فجعلوا دهرهم بين الجهاد والرباط والحج فكانوا كذلك حتى انقطع الأمر من تاهرت فكانوا يجتمعون في أماسن أهل الفريقيين افريقية وأهل جربة وأهل طرابلس ولقد بلغنا أنهم

(1) البغطوري، نفسه، ص. 48.

(2) البغطوري، مصدر سابق، ص. 42.

(3) الشماخي، مصدر سابق، ج 2 ص 771-772.

(1) البغطوري، مصدر سابق، ص. 49.

(2) المزاتي (أبو الربيع سليمان)، مصدر سابق، ص. 71.

(3) الورجلاني، مصدر سابق، ج 2، ص. 331.

يجتمعون في نحو ألف رجل أو أقل أو أكثر لا يكون الكلام بينهم في المجلس إلا بالترجمان فكانوا يجتمعون في الصحراء فيما بينهم وبين فزان فزالت تلك الطبقة فكانت التي بعدهم يجتمعون في هذا الجبل في المشاهد وقد بلغنا أن ثلاث عشرة جماعة في هذا الجبل قعدوا بالأزواد من الطعام في المشاهد يأكلون من أزوادهم من غير جوائح يمشون في المنازل»⁽¹⁾.

ولم يكن الصلاح حكرا على الرجال فقد حملت لنا السير الإباضية عددا من أسماء النساء الصالحات مستجابات الدعاء وهن، «زورغ من اركان في زمان ابان وام يحيى من تيمصليت واسيت من ويغو واصيل من تيمصمص وسرغنيت زوج جمال من وريوري وام حسنون من لالوت وصيدنت من تملوشايت وتوجينت وام امان من تارديت وابوب من مصليوش»⁽²⁾ ولذلك كان النفوسيون يتبركون بالعجائز الصالحات فيتخذوا بيوتهن مساجدا.⁽³⁾

بالإضافة إلى مجالس الذكر ودعاء الصلاح عمل قادة المجتمع النفوسي على حمايته من بطش السلطة الحاكمة بإفريقية وذلك بدفع الضرائب لتجنب الحرب، يقول البغطوري: «ثم كان عامل المسودة من صنهاجة أرسل لنفوسة أن يرسلوا له ألف دينار فمشى أبو زكريا في بلدان نفوسة فلم يجد غير مائتي دينار»⁽⁴⁾.

مهّدت مجالس الذكر لقيام نظام العزابة والجدير بالذكر أن أغلب كتاب السير الإباضية يستعملون مصطلح العزابة في غير زمانه ذلك أن

(1) البغطوري، نفسه، ص. 31.

(2) Lewicki (T); Etudes Ibâdites Nord-Africaines, I: Tasmîya 'suyûh Gabal Nafusawa-Qurahum. Waszawa, 1955, p23.

(3) البغطوري، نفسه، ص. 43.

(4) البغطوري، مصدر سابق، ص 75-76.

هذا المفهوم لم يتبلور إلا بعد القرن 5 هـ / 10 م بينما يمثل «مجالس الذكر» مفهوما خاصا بالقرن 4 و 5 هـ / 10 و 11 م.

2 - صرامة نظام العزابة:

ظهر نظام العزابة في القرن 5 هـ / القرن 11 م بعدما انقرضت إمارة الرستميين حاملة لواء المذهب الإباضي، فكان هذا النظام هو المعوض للدولة وتميز بصرامته وبمركزية دور الشيوخ فيه فعوض غياب الدولة، يقول يحيى معمر: «يذكر أنه بعد انقراض الدولة الرستمية أصبحت المناطق الإباضية شبه مستقلة يحكمها شيوخ أباضيون دون إعلان قيام دولة أباضية وكذلك دون الدخول تحت دولة أخرى»⁽¹⁾.

يعود الفضل في تأسيس نظام العزابة أو الحلقة في جبل نفوسة إلى العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي الذي عاش بين 345 هـ و 440 هـ / 956 م و 1047 م وقد تم له ذلك سنة 409 هـ / 1018 م وهذا النظام عبارة عن هيئة أو مجلس من العلماء وأهل الفضل وتتمثل مهمته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقوم بجميع الوظائف الدينية والدينية في المجتمعات الإباضية عامة والمجتمع النفوسي خاصة.

نشأ هذا النظام التربوي بعد قرن من الزمان على سقوط الدولة الرستمية حاملة لواء الإباضية، وبعدها أيقن الإباضية استحالة بناء كيان سياسي جديد خاصة وقد رفض خليفة العائلة الرستمية وهو أبو يوسف يعقوب بن أفلح هذا الأمر حيث قال قولته الشهيرة: «لا تستر الجمال

(1) معمر (علي يحيى)، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة، الإباضية في تونس، دار الثقافة بيروت 1966، ص 49.

بالغنم»⁽¹⁾، فظهر هذا النظام الذي يعنى بنشر العلم والفضيلة والحكم الأدبي دون بلوغ مرتبة الحكم السياسي وجعل الفرستائي ذلك في يد العلماء الذين يتمتعون بسلطة معنوية كبيرة في مجتمعاتهم المحلية.

يعرف الدرجيني العزابة فيقول: «العزابة وأحدهم عزابي هذه اللفظة استعملتها لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير» و«الحلقة اسم لجماعة تشتمل على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم في الدين» و«التلميذ اسم للواحد المبتدئ عند الدخول في الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصر على الصلاحية فقط وأصل هذه اللفظة فارسي»، و«الختمه اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها» و«المجتمع والجمع والميعاد ألفاظ مترادفة على معنى واحد وهو أن يجمعهم الشيخ على وعظ يفيدهم أو لتذكير أمر مهم يكون شوري من إصلاح فساد أو تلافى فوات أو أمر بمعروف أو نهى عن المنكر فمع الاختيار أن يكون ذلك يوم الاثنين والخميس ويكون في أي وقت دعت إليه الحال ليلا أو نهارا في أي يوم كان أول من رتبته أبو الحسن علي بن الحصين بمكة»⁽²⁾.

يقوم نظام العزابة على «السيادة العليا» وهي كما هي عند محمد أركون «الانتساب العفوي لشخص ما، إلى جملة من العقائد والرموز»⁽³⁾، فهي تعني الخضوع الطوعي لسلطة المشايخ دون اللجوء

(1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 179.
(2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 1، ص 4.
(3) أركون (محمد)، «مفهوم السيادة العليا في الفكر الإسلامي»، م. م، ص 19، ورد لدى: تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب 2014، ص 89.

إلى العنف فأقصى ما يمكن أن يفعله المشايخ والمجتمع عموما هو «الهجران والإبعاد» و«الهجران والإبعاد وهو إن أتى أحدهم جرما فيهجره أهل الإصلاح فلا يجالسونه ولا يأكلونه حتى يتوب»⁽¹⁾.

يعد نظام البراءة والهجران عقابا رادعا وبديلا عن السجن في غياب الدولة فمن ارتكب معصية ولم يتب عامله المجتمع الإباضي بالهجران والإبعاد والإفراد أما إذا صلح حاله فيجد المجتمع وأولهم الشيوخ والعجائز الصالحات يمدون له يد الصفح والعفو ومن آيات تسامح الصالحات مع المذنبين التائبين ما قاله البغطوري: «وقد سمع أبو عيسى قول العجوز أولا فلما تاب أبو حسان تقدم أبو عيسى إلى العجوز فقال لها: هل توليت أبا حسان قالت نعم فقال لها: هل تدعين لي بالجنة قالت نعم فقال لها: هل تدعين الله أن يشاركك معه في المنزل في الآخرة قالت»⁽²⁾.

يعمل نظام العزابة على دفع الطالب إلى الاجتهاد في تحصيل العلم وإتباع طريق الصلاح والابتعاد عن الأهل والأقارب والإذعان إلى الشيوخ، كما يلبس العزابي لباسا خاصا أبيض اللون وخاليا من الألوان والأشكال يشبه «الحولي» الذي مازال يرتديه الشيوخ الليبيون⁽³⁾.

(1) الدرجيني (أبو العباس)، نفسه، ص 5.
(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 39.
(3) البرادي (أبو القاسم بن إبراهيم)، الجواهر المنتقاة، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية التونسية عدد 8 ع 22520، ص 207. يقول البرادي في الجواهر عَمَّا يسميه طريق العزابة: «من أراد الدخول في طريق المبتدئين العزابة وذلك إذا اعتزل للعوائق الدنيوية وأول ما يتخلّى عنه خلق الشعر ولا يتركه يطول والعزابة من شعارهم عدم الشعور ومنها ألا يلبس ثوبا مصبوغا إلا البياض ولا بأس بعلم الطرفين والطرز ما لم يتفاحشا ثم إن اقتصر على عباءة أو ملحفة لم تشنه وكان أليق وإن كان ذلك على قميص كان أكحل ولا سبيل إلى اقتصاره على قميص أو قميص

يرتكز التعليم على العلوم الشرعية مثل علوم القرآن والحديث والفقه واللغة العربية وقوانينها وقد أدى ذلك إلى انتشار واسع لمبادئ المذهب الإباضي في ربوع الجبل من غربه إلى شرقه⁽¹⁾.

لقد أفضى هذا التوجه إلى نبوغ الكتاب الإباضيين خاصة في العلوم الشرعية وأشهرها كتاب القسمة وأصول الأرضين للفرسطائي واضح نظام العزابة.

أدى هذا النظام التربوي والتعليمي إلى ازدهار الحياة العلمية بجبل نفوسة وقد بلغت أوجها في القرن 5هـ / القرن 11م فقد أكمل نظام الحلقة ما بدأه أمراء الرستميين من عناية بالعلوم وعن مظاهر ازدهار الحياة العلمية بجبل نفوسة فقد أجمل البرادي الدقمري القول: «ومن تأليف أصحابنا أهل جبل نفوسة كتاب عمرو بن الفتح واللقط (كذا) وقفت على أربعة في أربعة أسفار كلها لأهل الجبل والجنابي في سفرين وكتاب الوضع ومن تأليف المتأخرين منها الإيضاح للشيخ

دون اشتماله والتحفاه وارتدائه وإن أعتم فالتحى على ما جاء في الأثر وليس لبس العمامة بضربة لازب لا بأس باستغنائه عنها وإن أقصر على العبادة أو اللحف غطى رأسه وألقى الطرف الأعلى من هدب الحاشية من الجانب الأيمن على عاتق الأيسر لا يلقي الهدب كله من الجانب الأيسر فإن ذلك مؤد إلى انكشاف العورة وأهل الحلقة صنفان أمر ومأمور فالأمر اثنان شيخ الحلقة والعريف والعريف صنفان منفرد وغير منفرد فالمنفرد اثنان عريف أوقات الختمات والنوم وعريف الطعام وغير المنفرد العرفاء من حملة القرآن منهم من يكتب عليه طلبة القرآن ألواحهم ويصححونها عليه ويحفظونها وعريف على أوقات الدراسة... والمأمور ثلاثة: طلبة القرآن وطلبة فنون العلم والأدب والعاجزون».

أنظر أيضا: روبيناتشي (روبيرتو)، العزابة حلقة الشيخ محمد بن بكر، ترجمة لميس الشجني وتقديم محمد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سلسلة أبحاث تاريخية 6، سنة 2005، ص 39.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 31.

عامر بن علي في ثلاثة أسفار في الفقه رأيته وقرأته وللشيخ إسماعيل بن موسى القواعد في سفر وشرح قصيدة أبي نصر النونية المعروفة بالعقيدة في ثلاثة أسفار وقفت عليها⁽¹⁾.

كان الحضر على التعلم وعلى احترام العلم والكتب كبيرا فقد قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن الخير: «من ضيّع كتابا كمن ضيّع خمسة عشر عالما»⁽²⁾.

استطاع نظام العزابة حماية المجتمع النفوسي حتى في غياب الدولة كما استطاع المحافظة على المذهب الإباضي الوهبي وفي المقابل لم يصمد النكار في جبل دمر فقد تقلص عددهم وتلاشى مذهبهم وعوضه تدريجيا المذهب المالكي.

يتناسب الفكر الخارجي مع البربر فالاستعراض لدى الخوارج وهو قتل المخالفين يقابله البأس والشدة والميل إلى التطرف لدى البربر مع بساطة المقولات الدينية الخارجية⁽³⁾.

لقد أنتج أسلوب التلقين مجتمعا متشددا في الفهم وفي الأحكام وفي تطبيقها فالتلقين لا ينتج إلا متشددين، حيث يقول الورجلاني على لسان قاضي الجبل عمرو بن الفتح المساكني في عهد الوالي أبي منصور إلياس في القرن 3هـ / القرن 9م، «فإن لم تأذن لي بثلاث فخذ

(1) البرادي (أبو القاسم)، الجواهر المنتقاة، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية التونسية عدد 8 22520، ص 219-220-221.

(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصابة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 255.

(3) عبد الرازق (محمود إسماعيل)، الخوارخ في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط 2، المغرب 1985، ص 41.

خاتمك عني: بقتل الطاعن في دين المسلمين ومانع الحق والدال على عورات المسلمين»⁽¹⁾.

رغم اختلافها عن بقية الحركات الخارجية، يظل موقف الحركة الأباضية متشددا وعنيفا إزاء المخالفين من أهل القبلة فهم عند عبد الله بن أباض كفار غير مشركين⁽²⁾، بينما يتوسع الإمام عبد الوهاب بن رستم في جواز قتل أهل القبلة الذين لا يسميهم المسلمين ليلبلغ أربعة وعشرون حالة وقيل سبعين وجب فيها إراقة الدم، بينما يقتصر الشيخ أبو مهاصر على أربعة أوجه فقط «وكان شديدا في الأمر والنهي ويتبع الأمراء يأمر وينهي ويشدد عليهم في أمور الإسلام» وقد «كان الإمام عبد الوهاب يقول أنا عندي أربعة وعشرين وبها تحل بها دماء أهل القبلة ولم يكن منها عند أبي مرداس إلا أربعة أوجه وقد شدد علي بها»⁽³⁾.

تبرز صرامة المذهب الأباضي في صرامة الشيوخ في العبادات فقد ضرب أبو محمد التغرمني ابنه تارك الصلاة ثلاثين ضربة عقابا له حتى تاب⁽⁴⁾ ويمكن أن يصل الأمر إلى السجن وهو ما حصل لأبي يحيى الدرفي الذي سجنه والده عقابا على ترك الصلاة⁽⁵⁾، كما يتشدد الأباضية في الطهارة: «وكان كثير التحرج والنزاهة فيما يطهر وينجس،

- (1) الوردجاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 150.
- (2) الشهرستاني، الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، ط2، بيروت 1992، ص 131.
- (3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009 ص 59. أنظر أيضا، الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج2 ص 302.
- (4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 149.
- (5) البغطوري (مقرين بن محمد)، مصدر سابق، ص 140.

حتى اتخذ ثيابا لصلاته سوى التي يلبس وكان يجعلها في الخرج لا يلبسها إلا في حال الصلاة وكانت لا تفوته ولو في السفر»⁽¹⁾ وهي كلها أحكام متشددة وثيقة الصلة بالمذهب الخارجي.

تبنى المغاربة المذاهب الأكثر تشددا والأكثر تضيقا والأقل «ليبرالية» وعقلانية مثل المالكية التي لا يتفوق عليها إلا الحنابلة في التشدد لدى السنة والصفورية والإباضية التي تكفر المخطئ، بينما تم محاربة المعتزلة الواصلية لأنها تمثل الخليفة العباسي وخاصة لأنها تمثل الفكر المعتزلي الذي يتيح للعقل مساحة واسعة للحرية وتتعارض مع طبيعة المغاربة المقلدين⁽²⁾.

تم تبني المذهب الأباضي الأقل عنفا من طرف البربر وهو ما يتناسب مع الظرفية السياسية التي بدأت تشهد تراخي قبضة الأمويين وأقول نجمهم وكردة فعل على الظلم الذي لقيه البربر من بعض الولاة، يقول روني باسي: «يجب الاعتراف أن انتفاضات الأمازيغ، تحت راية ملة دينية، كانت اجتماعية بالأساس وليس سببها اختلاف في الرأي أو تأويلا حول ماهية العقيدة»⁽³⁾.

3 - تحرر روح الجبالية:

يتميز المجتمع النفوسي بتشابك الرافد الثقافي البربري مع الرافد الإسلامي ويبدو أن الوافد الثقافي الإسلامي لم يتجاوز الطقوس

- (1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج2 ص 788.
- (2) المعتزلة، الموسوعة الإسلامية العامة، اشراف، محمود حمدي زقزوق، القاهرة 2003، ص 1318.
- (3) روني باسي، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة حمو بوشخار، المغرب 2012 ص 81.

الدينية الإيمانية في إطار المذهب الأباضي بينما تواصل العمل بتقاليد البربر وثقافتهم التي طبعت ممارسات المجتمع النفوسي، يتجسد هذا الأمر في عديد السلوكات والممارسات الجماعية أحيانا والفردية في كثير من الأحيان ومن بينها طغيان الروح المتحررة لدى النفوسيين التي تغلبت في كثير من المرات على صرامة نظام العزابة، فقد نقلت لنا السير الأباضية عديد القصص التي يستشف منها تحرر العلاقة وانفتاحها بين الرجال والنساء والإقدام على ممارسات تهدف إلى التملص من القيود التي وضعها نظام العزابة، كما بينت أن المجتمع منفتح على مكونات غير إسلامية ومتعايش مع الأقليات الدينية.

عرف المجتمع النفوسي انفتاح العلاقة بين الرجال والنساء ويمثل ذلك استثناء في مجتمع تحكم صلاته الشريعة الإسلامية، إلا أن الثقافة البربرية الأصلية كثيرا ما طفت على سطح الممارسات الاجتماعية اليومية، ذلك أن المرأة النفوسية تجد جذورها العميقة في القبائل البربرية مثل القبائل التوارقية، حيث تشبه المرأة النفوسية إلى حد كبير نظيرتها في كتامة وصنهاجة وغيرها.

من المعروف عن نساء التوارق في العصر الوسيط، أنهن لا يحتجبن ولا يلبسن النقاب ولا البرقع وأنهن يكتفين بغطاء الرأس التقليدي الذي جرت العادة أن تضعه المرأة البدوية على رأسها وقد تبسط ابن بطوطة في وصف ذلك حين وصف نساء مسوفة، كما أن نساء التوارق في العصر الوسيط لا يستنكفن من الاختلاط بالرجال وقد روى ابن بطوطة عديد القصص التي أشار فيها إلى الأريحية الكبيرة التي تميز تعامل التوارق مع مسألة اختلاط الجنسين⁽¹⁾.

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص، ط1، ج2 بيروت 1987، ص 690 و691.

كما يتحدث الزان الفاسي عن تحرر نساء صنهاجة وعن انفتاح علاقتهن بالرجال الأجانب حيث قال: «ونساؤهم ... يتحدثن بظرف ويمددن أيديهن عن طيب خاطر وقد يسمحن للرجال بلثمهن»⁽¹⁾.

يتفق هذا الوصف مع ما نقله الورجلاني عن المرأة في قسطالية الأباضية: «وبلغنا أنه دخل مرة قسطالية فرأى نساءها متبرجات مكشوفات فقال ما أكثر خدم هذا البلد حملهن على أنهن لسن حرائر»⁽²⁾.

كذلك الشأن في مجتمع نفوسة أين يمكن أن ترى إمراة مكشوفة الرأس وهو ما حدث مع الشيخ أبي مرداس مهاصر السدراتي الذي رأى امرأة تعمدت أن تخرج مكشوفة الرأس فعاقب نفسه وكفر عن ذنبه بالصيام ولم يلمها على شيء⁽³⁾.

تستمد المرأة النفوسية تحررها خاصة من أهمية مكانتها في المجتمع، ما جعل للجسد مكانته في تعاملاتها مع الرجال فلا تلغيه باللباس، بل تبرزه كلما سمحت الفرصة بذلك وهو ما يحيلنا على الفهم الخاص للإسلام داخل كل مجتمع أو ما يعرف بفقهاء الأقاليم والمناطق، يقول المبروك المنصوري: «يمثل الجسد البشري نظاما تواصليا جماليا رمزيا في جانبين اثنين. أما الأول فهو في أشكال اللباس باعتبار اللباس نظاما رمزيا جماليا دالا والثاني في لحظة التعري. والتعري أيضا فعل رمزي دال خاصة إذا اندرج في زمن رمزي دال آخر

(1) الزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، ط2، ج1، ص 59.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 196.

(3) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصابة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1 ص 259.

هو العيد. ويضاف إلى هذين النظامين البنية الجسدية العامة باعتبار مياسمها الجمالية المغربية المختلفة اختلافا كاملا عن مياسم الجمال العربي. وقد تجادلت كل هذه الأنظمة الرمزية المحلية الدالة مع الدين الإسلامي فاستوعب كثيرا من مكوناتها وحوّار أخرى في حين عارض أنظمة أخرى كثيرة معارضة كلية رغم أن هذه المعارضة لم تمنع من استمرارها حية فاعلة⁽¹⁾ وإذا لم يقع التشديد في تعرية جسد المرأة، فإن تعري جسد الرجل دونة الموت، فلم يطلب عمروس من الأمير الأغلبي العفو ولكن طلب منه ألا يعري جسده: «فسأله أن يطلبه العفو فقال: كلمة لا تسمعها مني أبدا، ولكن أسألك أن لا تعريني من سروالي هذا»⁽²⁾.

يتم الاحتفال بالجسد بوصفه بالحسن الذي لا يخطئه حتى الشيوخ، ولقي يوماً أمة فقال ما أحسن هذه الأمة لو أنها تعرف توحيدها فقالت الأمة: علمني يا شيخ فوقف يعلمها توحيدها»⁽³⁾.

لا يتورع الشيوخ والنساء الصالحات من الالتقاء خارج منظمة الزواج مثل أم ماطوس، وروي أن امرأة من أهل جارايزرار يقال لها: أم ماطوس كانت تتعلم عند أبي محمد خصيب وهي بكر وقيل أنها تمشي إلى أبي محمد التمصمصي في الليل فتحضر المجلس الذكر⁽⁴⁾ وقد يختلي الشيخ الصالح بامرأة خلوة غير شرعية ثم تأتي الرؤيا ليلا

(1) المنصوري (المبروك)، جدل الدين الإسلامي و العمران المغربي، الدار المتوسطة للنشر، تونس-بيروت 2010، ص 140.
(2) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 236.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 143.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 68.

لتبارك هذا الاختلاء وهو ما جرى مع الشيخ أبي ميمون التصصلي⁽¹⁾ ومن غريب الممارسات أن تضيّف المرأة الغرباء في غياب زوجها⁽²⁾ كما كان الشيخ أبان بن وسيم الويغوي يجتمع إلى امرأة واسمها بهلولة قبل الزواج⁽³⁾.

يتجلى الصراع بين الرافد الثقافي الأصلي والرافد الثقافي الإسلامي الوافد في حوار أبي هارون التملوشاني مع امرأة، قال البغطوري: «أعطته امرأة رمانا فقال: فأخبري أبا فلان يعني زوجها فقالت: لا فأبي أن يأخذه منها»⁽⁴⁾.

لا يتوقف الأمر عند العلاقات المفتوحة بين الرجال والنساء، بل يتعداه إلى سلوك شاذ عن المجتمع الإسلامي ويتمثل في تقديم النفوسيين إماءهم لقري الضيف، فعندما زار الإمام عبد الوهاب جبل نفوسة قدم بنو زمور إماءهم لجيشه فولدن لهم الأولاد وعند مغادرة هذا الجيش إلى تاهرت تم انتزاع الولدان وترك الإماء، وروي عنه حين قدم الإمام عبد الوهاب بعسكره فتزوج الفرس خدام بنو زمور فلما عزموا على المسير حملوا أولادهم معهم وقالوا ولد الحر لا يسترق فقال أبو عبيدة عبد الحميد انزعوا عبيدكم منهم فنزعهم بنو زمور بعدما ركبهم معهم على السروج»⁽⁵⁾.

(1) -مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 152، 153.

(2) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص 246.
(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 97.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 45.

(5) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 128. يشكك بعض المؤرخين في زيارة الإمام عبد الوهاب بن رستم إلى جبل نفوسة خاصة وأن لا أحد غير الورجلاني يذكر الخبر، انظر: الباهي (أحمد)، «حول ظهور قبائل دمر وزنزفة

وقد انتبه الرحالة الجغرافيون إلى هذا السلوك الغريب، حيث يقول صاحب كتاب الاستبصار: «وفي هذا الجبل أمم كثيرة على مذاهب شتى وأكثرهم إباضية وليس لهم أمير يرجعون إلى أمره وإنما لهم شيوخ وفقهاء في مذاهبهم يرجعون إلى أمرهم ولهم رخص كثيرة في مذاهبهم... والزنا الحرام بجبل نفوسة في مذهبهم، ما منهم رجل غني إلا وله وصائف كثيرة يلبسهن فاخر الثياب ويحليهن بالحلي ويبرزهن على الطريق للفواحش ولهم ديار معدة لذلك وهذا عندهم معروف لا ينكر ومن جبل نفوسة إلى بلد غدامس سبعة أيام في الصحراء»⁽¹⁾.

تتكرر القصص التي تتحدث عن العلاقة الجنسية «الزنا» خارج مؤسسة الزواج وتسامح المجتمع النفوسي حيث آوت عجوز الصالحة تبركانت بنتا حملت خارج الزواج فقام أخوها بقتلها انتقاماً ثم رآها من رآها في الجنة أما ابنها فقد صار إماماً وقدة⁽²⁾ وقد دفع ذلك الشيخ أبو مهاصر ألا يعاقب امرأة بغياً بل تستر عليها وأحسن معاملتها: «وروي أن امرأة من أهل منزله ظهر بها حمل من غير زوج فأخذت حملها ففطن بها الشيخ فلما حضرها الطلق دخلت خربة فولدت فيها وقد جعل أبو مهاصر بيته عليها فلما دخل عليها قال لها: يا فلانة احذري من أن يغرك الشيطان بقتله فقالت إني مغلوبة فقال: قد تكون الغلبة ويكون

ومطماطة بجنوب شرق أفريقية»، بحوث في التاريخ والحضارة، مركز النشر الجامعي ودار المعلمين العليا، تونس 2015، ص 13-64. الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع-14041دد، ص 148.

(1) كاتب مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958، ص 144 و 145.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 38. والقصة يوردها الشماخي بنصها الشعري البربري وترجمته العربية، انظر: الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2، ص 458.

الرقاد فقالت قد وجدني أبو مهاصر أدبر كيف أفعل به فسلمه الله على يد الشيخ فهياً لها الشيخ كل ما تحتاج إليه المرأة إذا وقعت»⁽¹⁾.

لذلك فلا حرج في الحديث عن الاستمتاع بالإماء بين الشيوخ⁽²⁾. ولا يستنكف بعض المشايخ من الخروج عن السلوك القويم أثناء القيام بدورهم الفقهي فهذا الشيخ باكبت يتحرش بامرأة سألته مسألة في الزكاة، وذكر أن امرأة جاءت باكبت من تين يوبين فقالت له: قوم لي حليبي أودّ عنه الزكاة فجعلت تحله من مواضعه فقال لها: أتركه في موضعه أقومه لك هناك فلما سمعت منه ذلك ضمت عليها ثيابها وهربت»⁽³⁾.

من غريب المجتمع النفوسي بروز ممارسات فردية تتعارض مع الإسلام وإن كانت لا تعبر على كل المجتمع فإنها تدل على توق النفوسي إلى التحرر والإفلات من ربة القوانين الصارمة.

كما كان أهل اغرمينان يفضلون اللعب عن أداء الفرائض الدينية فيجد الشيخ صعوبة ليردهم إلى المسجد، وفي السير وجد لواب بن

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 114. يقول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الآية 2 من سورة النور من القرآن الكريم. ورغم أن حكم الزنا هو الجلد إلا أنه تم ابتداء حدّ الرجم حتى القتل استناداً إلى الأحاديث، وهو ما يطرح مسألة موقع السنة النبوية من التشريع الإسلامي في ظل وجود النصوص القرآنية الصريحة.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 39.

(3) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1، ص 270.

سلام أهل اغرمينان يلعبون في المبارك فردهم إلى المساجد»⁽¹⁾، كما عُرف عن أهل اشارن عزوفهم عن دخول المسجد، وانه (أبو اسحاق الإشارني) إذا ذهب في المنازل حتى يرجع ويجد المسجد لم يدخله احد بعده، فيقول: يا أهل اشارن صرتم إلى اشارن»⁽²⁾. أي صرتم أظافر بكلام أهل الجبل.

كما يحتفل النفوسيون بأعراسهم ويتخذون كل وسائل الفرح سبيلا للاحتفال، وروي أن تلميذا من تلاميذه سار نحوه ليسلم حتى وصل فجرا سفن فصادف هناك جماعة من أهل تندونمرت وهم في العرس يلعبون بالدف»⁽³⁾، وهو ما جعل المرء في صراع بين الشهوة والالتزام، وروي عن ام جلددين أنها كانت امرأة تائبة فإذا سمعت بعد ذلك صوت الدف تعلق قلبها إلى ذلك واشتهت نفسها إلى ذلك فتحيرت من ذلك فدعت الله ربها أن يرد قلبها عن ذلك فقالت دعا بالبربرية. قال فما سمعت صوت دف بعد ذلك حتى ماتت»⁽⁴⁾.

قام بعض الناس من نفوسة بتحدي قوانين المجتمع الإسلامي وأحلوا ما حرمه، فشرب الخمر ممارسة غريبة عن المجتمع مع ذلك هناك من أهل ميري من يملك خوابي من الخمر»⁽⁵⁾، بل هناك من يشرب الخمر جهرة»⁽⁶⁾، وقد وجد الشيخ ميمون بن محمد مجلس خمر قرب

- (1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2، ص 391.
- (2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 141.
- (3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 48.
- (4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 155.
- (5) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 150.
- (6) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 50.

شروس فاكتنى بكسر أواني الخمر»⁽¹⁾ وما يدعو إلى الغرابة هو موقف الشيوخ المتسامح مع هذه الظواهر.

ورغم صرامة نظام العزابة وتشدد المذهب الإباضي كثيرا ما تبرز ممارسات غير منسجمة مع المجتمع النفوسي، حيث تسرد السير قصص وقاحة الشبان رغم صرامة المجتمع الإباضي حيث طلب شبان من أحد الشيوخ الرقص حتى يمر في طريق»⁽²⁾، كما أن سوء الخلق يمكن أن يكون من الرجال وعلى حساب المشايخ فهذا رجل طلب من المشايخ ضرب المزمار والتصفيق والرقص»⁽³⁾.

ومن السلوكات الشاذة أيضا، محاولة التلاميذ الإعتداء على أمة، حيث قال البغطوري: «وروي ان تلاميذه اخذوا أمة لاهل فساطو؛ ليخرجوا منها الحق، فتزعوها منهم ورجموهم بالحجارة، فرجعوا. فعلم بهم ابو سهل حين ذهبوا إليها بغير مشورته فقال لهم لو أخبرتمونا فرددنا في أخذه»⁽⁴⁾.

دعا هذا السلوك الذي يكون جماعيا في بعض المجتمعات القروية الصغيرة إلى تدمير الشيوخ، «وروي عن ابي الربيع انه قدم دجي فقال له ابو موسى: أهل دجي كلهم رجالهم ونساؤهم مستحقون الحبس والسياط الا محمد وأمه»⁽⁵⁾.

- (1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2، ص 430. أنظر أيضا:
- مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 87.
- (2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 151.
- (3) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصابة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1، ص 276.
- (4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 134.
- (5) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 112.

يستفاد مما تقدم أن المجتمع النفوسي الذي أسس أركانه الفكر الأباضي مجتمع متفتح وغير منغلق، ما جعل الشيوخ يراوحو بين صرامة نظام العزابة والتسهيل على الناس،⁽¹⁾ وبلغنا أنه بلغ في العلم إلى أن قال له أبو خليل - وكان شيخه وعنه أخذ وعنده تعلم -: لكل زمان نذير وأنت نذير زمانك يا أبان أفث للناس بالرخص كي يكون لهم ذلك عذرا عند مولاهم وكان مستجاب الدعاء⁽²⁾.

لم تستطع وحدة المذهب وصرامة نظام العزابة القضاء على العصبية القبلية فعرف الجبل عدة حروب أهلية وأصبح الجبالية « كالتيوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإذا افترقوا تصايحوا على حد تعبير أحد الشيوخ » وتعددت الخلافات في الرأي بين الفرق مما أدى إلى ضعف الرابطة الروحية وإظهار الفساد علانية كشرب الخمر وغيره وظهور الاغتيالات والتصفيات الجسدية.⁽³⁾ كما ظل قطع الطريق شائعا كلما اضطرب الأمن وفسد العمران⁽⁴⁾.

تعددت الصراعات التي شقت المجتمع النفوسي وأدت في كثير من الأحيان إلى حرب أهلية ساهمت في مزيد تفكك الجبل وأشهر الحروب تمت بين زمر وطرميسة وكذلك بين شروس وويغو...⁽⁵⁾.

رغم صرامة نظام العزابة التربوي والأحكام الاجتماعية القاسية التي يعاقب بها المخطف والمتمثلة بخاصة في المقاطعة وهي إنما تذكر

(1) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج1 ص 250.

(2) مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21-442هـ / 642-1053م)، مؤسسة تاوالت الثقافية 2003، ص 288.

(3) مقرين بن محمد البخطوري، نفسه، ص 135.

(4) مقرين بن محمد البخطوري، نفسه، ص 132.

بما فعلته قريش مع عشيرة بني هاشم في مكة زمن البعثة المحمدية الأولى مع اختلاف الأدوار، إلا أن هذا المجتمع النفوسي لم يكن مجتمعا منغلقا على نفسه بل بالعكس من ذلك، فقد مثل جبل نفوسة حلقة الوصل بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه بإشرافه على الجادة الكبرى وحلقة الوصل بين الصحراء الإفريقية الكبرى وبلاد السودان من جهة والساحل الطرابلسي والعالم المتوسطي من جهة أخرى، بسيطرته على المسالك التجارية وحلقة وصل بين الظاهر والسهل وهو كذلك المرحلة الانتقالية من حضارة المستقرين إلى حضارة البدو الرحل.

يقول سعد زغلول عبد الحميد: «على عكس ما هو مشهور من أن المجتمعات الخارجية متشددة في الأحكام متطرفة في الفتاوى. نلاحظ أن المجتمع الأباضي مجتمع متساهل في أحكامه متطور في فتاويه يجاري الظروف ومقتضى الأحوال. هذا ما يظهر لنا من الفتاوى التي يسجلها أبو الربيع الوسياني ومن الأحكام التي تصدرها جمهرة الشيوخ في جبل نفوسة وهذا لا يمنع عدم قبوله من بعض المتشددین من الفقهاء»⁽¹⁾.

لم يمنع الانضباط العقدي وصرامة نظام العزابة المجتمع النفوسي من حرية التصرف والانفتاح على العوالم المجاورة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وهو ما ينفي سياق النمذجة (المجتمع المثالي) التي طبع بها كتاب السير مجتمع القرون الأولى للإسلام.

(1) عبد الحميد (سعد زغلول)، «هامش على مصادر تاريخ الأباضية في المغرب: دراسة لكتاب السير» أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، سلسلة الدراسات التاريخية، تونس 1979، ص 77.

المبحث الثاني

جدلية الدين واللسان:

1 - بربرية اللسان وعروبة الدين:

استقبل أهل نفوسة الإسلام منذ قدومه الأول سنة 23 هـ / 644 م دون مقاومة تذكر فلم ترو لنا كتب التاريخ مقاومة لهذا الدين من قبل النفوسيين كما لم تذكر إقبالا عليه، إلا أن انتشار الإسلام في هذه القرن 1 هـ / القرن 7 م كان مقتصرًا على بعض المدن التي أنشئت مبكرًا مثل القيروان والتي ازدحمت بالمقاتلة من العرب الفاتحين وقليل من الحضّر الذين تعودوا على إتباع الغالب في سائر أحوله، أما البربر المنتشرون في الفيافي والجبال فقد آثروا عدم الاصطدام بالجيوش العربية إلا تلك التي حركها البيزنطيون وبقايا الروم وفي القرن 2 هـ / القرن 8 م عندما ارتبط الإقرار بالإيمان بالرضوخ للسلطان والإذعان لدولة الخلافة الأموية كان إسلام البربر سطحيًا وعروبتهم أكثر من ذلك.

تحول نفر من النفوسيين في القرن 2 هـ / القرن 8 م إلى المشرق وأخذوا الدين عن أصحاب المذهب الأباضي ولم يشارك ساكنة جبل نفوسة في ردة البربر التي تحدث عنها ابن خلدون وحتى ثوراتهم في القرن 2 هـ / القرن 8 م لم تكن إلا ردة فعل غاضبة على جور الولاة، فلا يمكن الحديث عن أسلمة جبل نفوسة إلا مع القرن الثاني للإسلام وبالتالي فالردة لا تعني الخروج عن الإسلام وتدل على ذلك الشواهد

الآثارية حيث تم تحويل عدد من الكنائس مساجدا فحافظ المعلم على هيئته تقريبا وعلى نفس العبادة وهي الصلاة وأصبح يطلق عليه مسجد الكنيسة مثل مسجد الكنيسة ومسجد الحواريين ومسجد الحواريين ومسجد تغليس، كما اهتم النفوسيون بتعلم الإسلام فأنجب الجبل عددا كبيرا من الشيوخ على مذهب ابن الأباض ويدل على ذلك كثرة المساجد في المجال الأباضي، حيث يتواتر الحديث عن كثافة عدد المساجد رغم قلة عدد أفراد القبيلة والأمثلة على ذلك كثيرة⁽¹⁾ كما كان لأبي عبيدة والي الجبل سبعة مساجد في محيطه بين جادو جناون، وروي عنه انه كان يمشي الى مساجد السبعة في ليلة فيتعبد فيها⁽²⁾.

من دلالات حسن تبني سكان جبل نفوسة الدين الإسلامي هو كثرة توجههم إلى الحج، حيث كان أهل نفوسة أكثر الناس حجًا، يقول الوسياني: «وكان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حجا وأزكا هم نهجا حتى إنهم يحجون بالنساء والذرية وذكر أنه ولد في قافلة واحدة ثلاثمائة صبي ذكورا ولهذا قالوا: من حج على غير متولاه فهو هالك»⁽³⁾ وهو ما يؤكد الدرجيني بعد ذلك⁽⁴⁾ فقد كان الحج رحلة إلى المشرق لاستعادة جذوة الدين وكان الأباضيون يلتقون في نقاط تجمع الحجاج بحيز طرابلس⁽⁵⁾.

- (1) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص 328، 329، الوسياني، سير الوسياني، ج 2، ص 830، 831.
- (2) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 128.
- (3) الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصابة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 239.
- (4) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 325.
- (5) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني،

ورغم تبني الإسلام مبكرا في الجبل فقد تواصلت الممارسات غير الإسلامية والتي تعود إلى الثقافة البربرية مثل التبرك بالعجائز الصالحات وقداسة المشاهد المسيحية والإسلامية والإيمان بكرامات الأولياء وخوارقهم.

من أمثلة تواصل الاعتقادات الوثنية إلى ما بعد إسلام أهل الجبل هو تكرار ذكر أثر أقدام الصلحاء على الصخور لدى الإباضية، حيث يقول الشماخي: «ومنها أثر أبي عثمان المزايقي بدجي، أعني أثره في مصلاه على صفا، ومنها أثر أبي مرداس مهاصر السدراتي في مصلاه على صفا، ثلاثة أقدام»⁽¹⁾، وهو اعتقاد بربري قديم حيث يقول باسي: «يشير سكان أرزيلا بالمغرب إلى بصمة رجل عملاق على صخر، تصور أثر أجدادهم»⁽²⁾.

وقد كان البربري شاهدا على تواصل الممارسات الوثنية حتى بعد إسلام البربر إلى القرن 5 هـ / القرن 11 م، حيث يقول في وصف الطريق بين طرابلس وودان: «ثم من قصر ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من الحجارة مبني على ربوة يسمى كرزة، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين ويستشفون به من أدواءهم ويتبركون به في أموالهم إلى اليوم»⁽³⁾.

- ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 31.
- (1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009، ج 2 ص 771.
- (2) روني باسي، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة حمو بوشخار، المغرب 2012 ص 62. نقله عن: دي كامبو، إمبراطورية تنهار، باريس، د. ت. ص 233.
- (3) البربري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان لبوفن، أندريه فيري، الدار العربية للكتاب 1992، ج 2، ص 659.

تتعلق إشكالية اللسان بأسلمة الجبل، فرغم أن الإسلام وصل بلغة مضر ورغم حاجة البربر إلى تعلم اللغة العربية لمعرفة دينهم الجديد وممارسة طقوسه، فقد قاوم اللسان البربري وصمد في وجه اللسان العربي، فواصل النفوسيون التكلم باللسان البربري⁽¹⁾ وهنا نشير إلى سياقين مختلفين، ففي الوقت الذي تشبث فيه عامة الناس من نفوسة باللسان البربري سعى الأئمة والمشايخ لتعلم العربية فظهر اختلاف بين لسان الأئمة ولسان العامة فقد «حلف لهم» الإمام عبد الوهاب بن رستم بالله بالعربية وبرديو بالحضرية وايكش بالبربرية⁽²⁾، يبدو أن المقصود بالحضرية هي اللغة اللاتينية التي لا مازالت تجد من يتحدث بها في الحواضر المغربية، كما ينقل لنا البغطوري نصاً لأبي عبيدة يتكلم العربية والبربرية والحضرية وهو شبيه جداً بقصة الإمام عبد الوهاب بن رستم⁽³⁾.

ويسوق الوسياتي فتوى عن أبي الربيع بن يخلف المزاتي أن من وُحِدَ فقال «ياكش» بالبربرية فأتم الجملة فهو موحد⁽⁴⁾ والطريف في هذا الأمر أن أغلب البربر يدعون «ياكش» أو «ايكش» كمرادف لفظي «لله»، سواء المسلم أو الذي لا يزال على وثنيته أو الذي على شركه مثل صالح بن طريف مدعي النبوة.

- (1) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 311.
- (2) الورجلاني (أبو زكرياء)، نفسه، ص 124.
- (3) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 129. يقول البغطوري: «فسمع بذلك أبو عبيدة فعزم على دفاعه وقاتله فلقي رجلاً نكاريًا فقال له النكاري ليس طاقة ولا حاجة لك في لقائه لأنك ليس معك إلا قلة فحلف له أبو عبيدة فقال: واللّه بالعربية «ايكش» بالبربرية «ايردنو» بالحضرية.
- (4) الوسياني (أبو الربيع)، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 488.

كما يشير نص آخر إلى التنوع اللغوي داخل الإمارة الرستمية فلم يفهم رجل من نفوسة ما يقول الإمام عبد الوهاب ويدعوه بالحضري: «وبلغنا عن الإمام (عبد الوهاب) أن رجلاً استمسك بآخر عنده حيث كان ها هنا بالجبل فأبى (المدعي عليه) برد الجواب وقال: ماذا (يقول) هذا الحضري يعني الإمام»⁽¹⁾.

أما عندما تعلم النفوسيون العربية أصبحت كأنها لغة مخصوصة وهي لسان عربي بلكنة بربرية حيث يقول الدرجيني: «كان اسمه (أبو عثمان المزاتي) مشهوراً باللغة النفوسية فإذا ذكروه قالوا باثمان»⁽²⁾.

ولتقريب المعنى من افهام العامة سعى قادة المذهب إلى ترجمة المعاني الدينية إلى اللسان البربري حيث يذكر الدرجيني كتاباً من تأليف مهدي النفوسي الويغوي سنة 196 هـ / 812 م ولكنه لا يزال في عداد المفقودين، ألا وهو كتاب رد أباطيل نفاث بن نصر، يقول الدرجيني: «إنما وضعها واضعها باللسان البربري ليتناقلها البربر، فكالهم بصاعهم، لم يطفف ولم يبخس ولم يعد من الألفاظ ما يفهمونه، ولا أعرب ولا أغرب بحيث يتوهمونه»⁽³⁾.

كما شاركت الصالحات في تقريب معاني الإسلام من العامة مثل أم يلا غيل المرأة الصالحة التي تنتج نصوصاً بربرية: «وروى أبي نصر عن أم يلا غيل⁽⁴⁾ أنها قالت لو حلفت لا أحنث أن اسم الرجل في الدنيا

- (1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 124.
- (2) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 308.
- (3) الدرجيني (أبو العباس)، نفسه، ج 1 ص 6.
- (4) أم يلا غيل، اعتقد أن الصحيح «للا» وليست «يلا» و«للا» كلمة بربرية تعني صيغة احترام عند خطاب المرأة كبيرة السن، ويكون اسم المرأة «أم غيل»، أنظر:

هو اسمه في الآخرة ولو حلفت لا أحدث أن لا يقع الحمل إلا حيث مال. ولو حلفت لا أحدث أن لا يموت إنسان يوم الخميس ويبيت في قبره يوم الجمعة إلا من له الرأفة من الله وروي عنها أنها قالت كلام بالبربرية تركته»⁽¹⁾ وترجمت أم يحيى العالمية بعض كلمات من القرآن إلى اللسان البربري مثل كلمة «حظ عظيم» ومعناها بالبربري كما ذكرته أم يحيى «تكسلت»⁽²⁾.

أما الوسياني صاحب السير وهو من أهل القرن 6هـ / القرن 12م فكان كثيرا ما ينقل نصا بربريا ويعربه وهو دليل على إتقانه للسانين في هذا العهد⁽³⁾.

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدمته: «فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم ولم يكذب يخلو عنها مصر ولا جيل، فغلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت

وإمادي (محمد)، أحوال معجم أمازيغي لبيبي، نسخة الكترونية، مادة «لل»، ص 356.

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 41.

(2) مقرين بن محمد البغطوري، نفسه، ص 54.

(3) الوسياني (أبو الربيع)، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج2 ص 639. «وذكر عن أصيل، وهي امرأة صالحة، تكلم وهي مستجابة. وذكر أنها أرادت ذات يوم أن تمضي إلى تهنة بمولود، فقال: اغر تمزيديكم إيصيل تجدد ويتمتان ولا ادغ ويتلنن مك تصريط أرازن أتوشنين ايو فيجدن تمزيديان يوش يتصلا الشغل اديدغن احايين اتفاط تسفار اتجين ورتنت تصكيد الشغل اديدغار سطين ائلسط تلمسان ديدتين ورتنت ترطيط تظن أسد امان ضقلنين آدم زنن دج أم تقراطين، أمضي إلى مسجدك يا أصيل و دعي من يموت ومن يولد، لو رأيت الثواب الذي يتلقى من يزور مسجد الله للصلاة، لا تشتغلي بالأحجار التي يغتر بها، تدخلين البيوت العالية التي لم تبناها، لا تشتغلين بالسترات والبرد، تلبسين ثيابا رقا لم تنسجين، تبكين اليوم ماء حارًا يوزن لك في الميزان كالقراريط»

لغة أخرى ممتازة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد»⁽¹⁾.

لقد أيقن المشايخ أن اللغة العربية هي لغة ذاك العصر ولغة العنصر المتغلب، لذلك واطبوا على تعلمها وقطعوا المسافات من أجل ذلك حيث يذكر العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر أنه «توجه نحو القيروان وتعلم بها النحو والعربية»⁽²⁾، كما كانت تونس مقصد طلبة العلم الأباضيين أمثال أبي عمار عبد الكافي وذلك حتى «ينقطع عن اللسان البربري بالبعد عمن يخالطه به والتدرب على لسان العربية»⁽³⁾.

كما كانت القيروان مثابة للأباضيين يشدون الرحال إليها لتعلم العربية وعلومها، يقول يحيى معمر: «ودامت القيروان إلى القرن الحادي عشر ميلادي مثابة للأباضيين الواردين من مختلف بقاع المغرب لتعلم العربية وآدابها، وكانت فروع من مزانة وهوارة تسكن حصن القيروان وهي على المذهب الأباضي من الوهبة في أيام بني زيري الصنهاجيين»⁽⁴⁾.

أولى المشايخ اللغة العربية المكانة التي تستحق فهي لغة الإسلام فلا تفهم معانيه من دون تعلمها، لذلك بلغ التحريض على تعلمها مبلغا كبيرا وأعطى ذلك بعدا دينيا، فتعلم حرف من العربية كعبادة أربعمائة وثمانين قرنا، يقول الوسياني: «وعن أبي محمد عبد الله عن أبي عمران

(1) ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر 1993، ص 727 و 728.

(2) الوريجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982، ص 263.

(3) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 486.

(4) معمر (علي يحيى)، الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة، الأباضية في تونس، دار الثقافة بيروت 1966، ص 48.

موسى بن أبي زكرياء كثيرا ما يقول: تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة، وتعلم مسألة كعبادة ستين سنة»⁽¹⁾.

حرص المسلمون على نشر الإسلام باللسان العربي وكانت الغاية هي التعريب والأسلمة في آن، لأنه كان بالإمكان ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللهجات البربرية المختلفة، إلا أن ثقافة المتغلب كانت هي المتحكمة في عملية انتشار الإسلام، فتم اعتبار محاولات نقل القرآن إلى اللسان البربري هرطقة وصالح بن طريف مدّع للنبوة على غرار مسيلمة الكذاب وتمت محاربته والقضاء عليه بواسطة البربر أنفسهم مع دولة الموحددين.

يقول محمد عابد الجابري: «ما ساهم به العرب في الحضارة الإسلامية التي ورثت الحضارات السابقة هو اللغة والدين، فإن الدين الإسلامي بقي عربيا ولا يمكن أن يستغني على لغة العرب لأن القرآن وهو «لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» لا يمكن نقله إلى لغة أخرى دون المساس به فالعربية جزء ماهيته»⁽²⁾.

لقد تمكن الإسلام من دخول كل بيوتات الجبل حتى لا نجد اليوم غير المسلمين فأخر اليهود غادره في ستينات القرن العشرين، أما النصراني فيبدو أنهم اعتنقوا الإسلام في القرنين الأولين من انتشاره بالجبل، يقول غابرييل كامب: «صارت بلاد البربر مسلمة في أقل من قرنين من الزمن، بينما لا تزال لم تتعرب بالكامل حتى الآن، بعد مرور ثلاثة عشر قرناً على الغزو العربي الأول»⁽³⁾.

(1) الوسياني (أبو الربيع)، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009، ج 1 ص 400.

(2) الجابري (محمد عابد)، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 10 بيروت 2009، ص 75.

(3) كامب (غابرييل)، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، ص 85 / 94.

بينما يذهب المبروك المنصوري أن الإسلام لا يشكل إلا الطبقة السطحية من وعي البربري حيث يقول: «تشكل المعتقد الشعبي المغربي كما تشكل الطبقات الجيولوجية عبر تراكمات وترسبات متعاقبة، واحتل الإسلام الطبقة العليا السطحية، وغطى ظاهريا كل تلك البنى القديمة، كما غطى اللسان العربي اللسان الأمازيغي»⁽¹⁾.

أدت عمليات انتشار الإسلام التي دامت قرونا إلى أسلمة سكان جبل نفوسة وتعريبهم ومع ذلك يمكن تقسيمهم إلى قسمين رئيسيين هما: «البربر الواطيين» في الشرق و«البربر الفوقيين» في الغرب⁽²⁾، وتبدو المنطقة الغربية أكثر تمسكا باللسان البربري مقارنة بالمنطقة الشرقية حيث مازال أهل نالت ووازن يتحدثون البربرية، بينما ينحصر اللسان البربري في القسم الشرقي في يفرن وتحيط بها القبائل التي تعربت مثل الرجبان والزنتان والريانة وإن حافظت هذه المناطق على اللسان البربري فإنها تتقن اللسان العربي وتمارسه في تعاملاتها اليومية وفي المقابل نسي عدد كبير من البربر لسانهم الأصيل بفعل عملية التعريب.

ويقدم دي بوا خريطة توزع اللسانين العربي والبربري بجبل نفوسة خلال النصف الأول من القرن العشرين حيث كان الوضع اللغوي والثقافي قريب الشبه بالعصور الوسطى وذلك قبل التأثيرات الكبيرة التي حملتها المدرسة التي كانت قاطرة التعريب ربما أكثر حتى من الدور الذي قام به أعراب بني هلال والسليمينيين

(1) المنصوري (المبروك)، جدل الدين الإسلامي والعمران المغربي، الدار المتوسطة للنشر، تونس-بيروت 2010، ص 100.

(2) شرف (عبد العزيز طريح)، جغرافية ليبيا، دار الجامعات المصرية، القاهرة 1971، ص 212.

يقول دي بوا: «هكذا تكون بلاد ككلة وبكل تأكيد، آخر البلاد التي أتى عليها طوفان التعريب والآن يمتد مد هذا الطوفان إلى قرى يفرن فقد مس أم الجرسان والقلعة وواضح أن كل هؤلاء العرب الموزعين ما هم سوى بربر معربين سوف تتجاوز هنا معطيات الخريطة اللغوية وبكل أمان ليس التعريب دائماً حركة مد كاسحة، بل عادة ما يكون اختراقاً وتسلاً، فخريطة اللغات تبين لنا كيف أن الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يتعايشون في عدد من قرى الحرابا والرحيات ففي الرحيات، يقيم الناطقون بالبربرية إباضيو المذهب في جزء لا بأس به من تمزدة وإينر وجيطال وونزيرف والندوة والقلعة والقياصلة الذين كانوا يسمون في زمن مضى قطرس وهو اسم لفخذة ناطقة بالبربرية لا زالوا بالمكان نفسه، جزء لا يستهان به إذن من ساكنة الرحيات من أصول بربرية لا يرقى إليها الشك الشيء نفسه ينطبق على الحراية التي تضم ثلاث قرى ناطقة بالبربرية كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك وأربع أخرى مختلطة وهي أم صفار وتينزغت وبقالة ومرقس.

فلننظر الآن في جماعة العرب أو بالأحرى الناطقين بالعربية، رأينا أن معظم المتواجدين منهم بككلة بربر ففي عدد لا يستهان به من القرى لا يعترف بالأصول البربرية إلا لمجموعات صغيرة جداً من الساكنة غرب يفرن، نجد أن القرى الأربع للخلايفة مأهولة بساكنة مختلطة في حين ينحدر آل الزرقان المتفرعون من فخذة تحمل الاسم نفسه، من ورغمة في الجنوب التونسي.

في الريانة يدّعي جزء من أولاد بو حسين أنهم ينحدرون من الساقية الحمراء بالجنوب الغربي للمغرب الذي تكثر فيه الزوايا البربرية وأولاد ريان من ثلة من الأسر البربرية الشمانغة، أما آل الفاضل فيدعون أنهم بربر ولو أنهم يتحدثون بالعربية ويتبعون المذهب المالكي منذ زمن

سحيق. وعند آل الزنتان العرب الأفحاح المزعمين تجد أولاد خليفة يقولون بانحدارهم من مجموعة من الأسر البربرية المعربة بطبيعة الحال. عند الرجبان، نجد قرية بربرية عن آخرها تدعى شقي والتي لا زال رجالها يتزوجون من الساكنة الناطقة بالبربرية في طرميسا. كما أن ما يقرب من نصف ساكنة تارديا (تارديت) وجزء من زعفران (أولاد عبد الجليل) حيث العديد من النسوة لا زلن يعتمرن الشاشية البربرية وثلاث أسر في أولاد عنان يقولون بأنهم بربر أبا عن جد وفي أولاد محمود أيضاً نجد خمس أسر بربر⁽¹⁾.

يخلط دي بوا بين الأصل وبين اللسان فرغم أن لا أحد يمكن أن يشكك في الأصول البربرية لأغلب ساكنة جبل نفوسة، إلا أن تاريخ الاستيطان العربي قديم وسابق للقرن 5هـ / القرن 11م، ثم جاء أفواج الهلاليين وخاصة السليميين الذين استقر الكثير منهم بالجبل منذ القرن 6هـ / القرن 12م وهو ما أفرز واقعا يغلب عليه التنوع والاختلاط وسمته الغالبة التعريب في مستوى إتقان اللسان العربي والأسماء العربية للسكان وكتاباتهم الأثرية التي تعود إلى القرن 3هـ / القرن 9م دليل على تبني اللسان العربي الحامل لحضارة العرب دون أن يلغي اللسان البربري.

2 - الإشعاع الثقافي لجبل نفوسة.

أ) الإشعاع الديني:

أدى استقرار الأباضية في المجال المتاخم للصحراء خصوصا بجبل نفوسة ووحدات غدامس وفزان منذ القرن 2هـ / القرن 8م

(1) Despois, j. Le Djebel nefousa, 145-146

إلى ارتباطهم القوي بالتجارة القوافلية، وعزز من ذلك الارتباط اعتناق مجموعات مرتحلة من قبيلتي هواره وزناتة للمذهب الأباضي وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء وهو ما ساعد على انتقال المذهب الأباضي إلى بلاد السودان.

وقد تعرضنا في الفصل الأول من الباب الثالث إلى الدور الكبير لنفوسة وشيوخها في التجارة الصحراوية التي نشطت كثيرا منذ القرن 2هـ / القرن 8م ورأينا الأهمية البالغة لهذا النشاط الاقتصادي وعائداته الكبيرة على الجبل وبقية الفضاء الأباضي، ويبدو أن الأباضية وخاصة الشيوخ منهم لم يكن القصد من تنقلاتهم العديدة استهداف التجارة فقط، بل كانت الدعوة أيضا تحتل حيزا كبيرا من نشاطاتهم بهدف نشر الإسلام عن طريق نشر المذهب الأباضي.

يقول الشماخي عن الشيخ علي بن يخلف الذي عاش في القرن 6هـ / القرن 12م: «أنه سافر إلى دواخل غانة تاجرا. [فأقام] بها. وله مكان عند ملكها، وكان عظيما، تحته اثنا عشر معدنا، يستخرج منه التبر. ووقع القحط ببلادهم. فاشتكت الرعية إلى السلطان، وذلك بمدينة مالي. فقرّبوا لأصنامهم الذبائح، واستغاثوا بها. فلم يغاثوا. وكان الشيخ علي على ارتحال. فقال له الملك: أدع ربك لعله يغثنا، قال: لا يجوز، وأنتم تعبدون غيره، قال: كيف صفة الإسلام؟ فما زال به حتى وُحِد، وتكلم بكلمة الحق»⁽¹⁾، ويقول الشماخي: «وهذا سبب دخول الإسلام بلاد السودان بغانة وما يليها»⁽²⁾.

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، ليبيا، 2009، ج 2 ص 659.
(2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ص 660.

نقل الشماخي روايته عن الدرجيني⁽¹⁾، ذلك أن الشيخ علي بن يخلف هو جد الدرجيني إلا أن ورود هذه الرواية في مسالك البكري يؤكد صحة الرواية ويشكك في نسبتها إلى علي بن يخلف بل قد يكون شخصا آخر غيره، ويكون قد أسلم على يد علي بن يخلف ملك آخر غير الذي ورد لدى البكري الذي يقدم نفس هذه القصة حيث يقول: «ووراء بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلماني، وإنما سمي لأن بلاده أجذبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء. وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له: أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحلّ بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك. فلم يزل به حتى أسلم ... وصحّ إسلامه»⁽²⁾.

لقد قام الإباضيون بإدخال الإسلام إلى جزء من إفريقيا السوداء وهو بلاد السودان الغربي والأوسط وكذلك شرق إفريقيا، ويرجح شاخنت (J) SVHACHT أن الإباضية أول من حمل الإسلام إلى مالي⁽³⁾.

(1) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 517.
(2) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، الجزء الثاني، ص 875-876.

(3) SVHACHT (J), «Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane a travers lesahara», travaux de l'institut de recherches sahariennes, (T.I.R.S.). tome XI, Alger, 1954, p22.

لقد كان دور شيوخ الإباضية في نشر الإسلام خارج الجبل كبيرا وخاصة في بلاد السودان وأشهر المشايخ كان أبو يحيى زكريا بن أبي القاسم يونس الفرستائي من علماء القرن 4هـ / القرن 10م من فرسطاء، واشتهر بسفره وقد أسلم على يديه ملك السودان،» وروي عن أبي يحيى انه سافر إلى بلاد السودان فوجد مليكهم ناحل الجسم ضعيف فسأله لما صار حالك هكذا فقال عندنا هاهنا شيء إذا نزل ببعضنا ازاله وذهب به ويعني به الموت. قال أبو يحيى فاخبرته عن الله عز وجل وصفة الجنة وثوابها لمن اطاع الله واخبرته عن النار وعقابها لمن عصي الله. فقال لي كذبت لو كان عندك يقين بما تصف لم تأت إلى هنا لطلب الدنيا فمازلت أحاوله واذكر له الله ونعمائه وأرغبه في الإسلام حتى اسلم وحسن إسلامه»⁽¹⁾.

لقد نجح أبو يحيى بأسلوبه الدعوي فيما فشل فيه عقبة بن نافع حيث تمكن التجار الإباضية من نشر الإسلام ببلاد السودان بأسلوب متميز، بينما نقلت لنا المصادر التعامل العنيف الذي مارسه عقبة بن نافع مع أحد ملوك بلاد السودان حيث قطع أذنه، يقول البكري: «حتى قدم (عقبة بن نافع) ودان فافتتحها وأخذ ملكهم، فجدع أذنه، فقال: لم فعلت هذا: قد عاهدني المسلمون؟ قال: أدبا لك، إذا ذكرت أذنك ذكرت ذلك فلم تحارب العرب»⁽²⁾.

أدى الازدهار العلمي بجبل نفوسة إلى انتشاره في أرجاء الفضاء الإباضي المغربي حيث حمل العلماء مكنون علمهم معهم، وتنقلوا إلى تاهرت مثل لوالب بن سلام الإباضي صاحب كتاب، بدء الإسلام

(1) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 65.

(2) البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان لبوفن، أندريه فيري، الدار العربية للكتاب 1992، ج 2، ص 560.

وشرائع الدين وهو أقدم مؤرخي الإباضية وينتمي للطبقة الخامسة⁽¹⁾، وإلى سجل ماسة مثل أبي الربيع سليمان بن زرقون من علماء القرن 4هـ / القرن 10م وهو من تادويت بجبل نفوسة، تحول إلى توزر وتعلم على يديه أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلا بن زلتاف وهما قادة المذهب في هذه الربوع⁽²⁾.

كما عمّت فتاوى ابن ماطوس كل أرجاء المنطقة الإباضية، يقول البغطوري: «وروي أن أبا يحيى سليمان بن ماطوس (الشروسي النفوسي) انه كان عالما وقد شاع علمه في البلاد بل البلدان وبورك في فتياه حتى قيل أن فتيا ابن ماطوس بلغت في جربة وفي امسنان وفي وارجلان حتى لحقت فتياه ارضا يقال لها سلام عليك (سلام لك) في المغرب»⁽³⁾.

كما كان الشيخ أبو خليل صال الدركلي الذي عاش في القرن 2هـ / القرن 8م وهو من حملة العلم الخمسة يعلم الناس من قابس إلى فزان: «فقد حضرها ما بينه وبين قابس، وما بينه وبين فزان»⁽⁴⁾.

وكذلك أبو عبد الله محمد النفوسي الفرستائي واضع نظام العزابة وأصله من فرسطاء بجبل نفوسة، اشتهر بكثرة التنقل في الفضاء المغربي حيث عاش زمنا ببلاد الجريد ثم القيروان ووادي أريغ وتوفي في ورغلة وهو من علماء النصف الأول من القرن 5هـ / القرن 11م⁽⁵⁾، وكذلك

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، ليبيا، 2009، ج 2، ص 391-392، ج 3، ص 1004.

(2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ج 2، ص 438، ج 3، ص 923.

(3) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009، ص 86.

(4) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ج 2، ص 349.

(5) الدرجيني (أبو العباس)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم

يخلف بن يخلف التميمي النفوسي وهو فقيه إباضي من تميمجار بجبل نفوسة عاش في القرن 6هـ / القرن 12م ثم استقر بالجريد⁽¹⁾، وهو شأن أبي يعقوب محمد بن يدر الدرفي النفوسي مؤرخ أباضي من إدرف بجبل نفوسة عاش في القرن 5هـ / القرن 11م ثم سكن في أمسنان بالجريد التونسي⁽²⁾.

يقول الشماخي عن الشيخ المحدث النفوسي أبي زكريا يحيى بن زكريا الذي عاش في القرن 9هـ / القرن 15م: «... يجتمع عليه طلبه العلم من نفوسة، وجربة، ودمر، ويفرن، والمغرب»⁽³⁾.

لقد تفوق علماء جبل نفوسة حتى على نظرائهم في المشرق منيع المذهب الأباضي، ما دعا العالم عمروس من رجال القرن 3هـ / القرن 9م إلى الجلوس للفتيا في حضرة علماء المشرق، يقول البغطوري: «وذكروا عن عمروس بن فتح انه كان عالما كبيرا وقيل انه كان قد أهتم ان يفرز بين السنة والتنزيل والرأي والكتاب. وذكروا عنه انه سافر الى المشرق فدخل على المسلمين في المجلس ومحمد بن محبوب هو المفتي فرد عمروس عليه السؤال فقال لهم ابن محبوب افيكم عمروس بن فتح فقالوا له هو السائل فقال له انت اولي بهذا الموضوع فنزل له عن المنبر فرجع هو عليه وقعد ابن محبوب قدامه فجعل عمروس يفتي للناس»⁽⁴⁾.

وهكذا نجح النفوسيون في نشر الإسلام كما نشروا علومهم ومعارفهم في الفضاء الإباضي عبر التجارة وبواسطة تنقلات العلماء والرحلات العلمية خارج جبل نفوسة.

(ب) الإشعاع الفني:

مثل جبل نفوسة ملتقى تيارات فنية متعددة وقد تأثرت عمارته خاصة عن طريق اتصاله بطرابلس، وفي المقابل حمل النفوسيون عصارة خبرتهم معهم في هجراتهم المختلفة خارج الجبل، لقد أثر النفوسيون خاصة في عمارة الفضاء الإباضي المحيط في جربة وجبل دمر وقسطيلية ووادي أسوف وبلاد السودان.

يرى غاسبري ميساننا أن مساجد القبو الطولي هي أقدم مساجد ليبيا ويرى أن تركزها كان في جبل نفوسة ثم انتشرت في جنوب شرق إفريقيا⁽¹⁾.

ويرى شاخنت أن الفن المعماري الإباضي قد طبع العمارة الدينية ببلاد السودان الغربي والأوسط فالمنارة ذات المدرج المنتشرة انتقلت من نفوسة عن طريق وارجلان⁽²⁾.

(1) ميساننا (غاسبري)، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، طرابلس - بيروت 1998، ص 84-85.

(2) ليفيتسكي (تاديوش)، دراسات شمال إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم أحمد بومزقو ومحمد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سنة 2006، ص 52.

الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، ج 2، ص 471، «فبينما الشيخ طاهر جالس تحت درج الأذان».

الطلاي، قسنطينة الجزائر 1974، ج 2 ص 377.

(1) الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، ليبيا، 2009، ج 2 ص 632، ج 3 ص 1049.

(2) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ج 2 ص 604، ج 3 ص 1053.

(3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، نفسه، ج 2 ص 797.

(4) مقرين بن محمد البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط 1، تاوالت، المغرب 2009، ص 118.

ويؤيد هذا الرأي ليفيتسكي الذي يرى أن المنارة ذات الدّرج ذاتة الصيت ببلاد السودان ما هي إلا إحدى التأثيرات الأباضية الوافدة من جنوب شرق إفريقيا⁽¹⁾، وتنتشر على نطاق واسع بجزيرة جربة.

كما ينتشر بجزيرة جربة منائر كثيرة الشبه بجبل نفوسة في مستوى الشكل وهو عبارة عن جسم غير مرتفع يتكون من ثلاث عناصر، هي: القاعدة والعميدات وتتوج بجامور مدبب، نجد هذا الصنف من المنائر في عدد من المساجد على غرار «جامع الصلاة» بحومة أجيم بجربة⁽²⁾.

كما عثرنا على تشابه كبير بين مسجد تيواتروين بالقصير بوطن يفرن وبين جامع السلّوتي بحومة سيدي عمر في جربة وذلك في مستوى المدرج داخل بيت الصلاة والذي يفضي إلى المئذنة فوق السطح كدليل على التأثيرات النفوسية في العمارة الأباضية المحيطة بالجبل⁽³⁾.

كما أن شكل المئذنة ذات السقف المدبب القائم على أربعة دعائم الذي نجده في مسجد النوبلي بوازن غرب جبل نفوسة ومسجد للا معيوفة بيفرن شرق الجبل قد انتشر في عدد من الجهات مثل جربة كما هو الحال في مسجد بازيم⁽⁴⁾.

انتشر هذا الشكل من المنائر بقليل من التحوير في المزاب لكن هذه المرة في المقابر والأضرحة، حيث تعددت في مقبرة سيدي

عيسى الأضرحة التي يعلوها ما يشبه المنارة التي اشتهرت بجبل نفوسة وبجربة⁽¹⁾.

تعدّ المساجد الكهفية المنتشرة على نطاق واسع، تقليد جبلي صرف وفد على جزيرة جربة بفضل التأثيرات النفوسية والدمرية، ذلك أن الطوبوغرافيا في جربة لا تدعو إلى تقنية الحفر غير أنها تجد دوافع أخرى كالتخفي والتقية انسجاما مع مسلك الكتمان لدى الأباضية ويحصي رياض المرباط عددا هاما من المساجد الحفرية بالجزيرة. وفي هذا الإطار يمكن معرفة الجهة التي قدم منها البناؤون من جبل نفوسة حيث نعتقد أنها الجهة الشرقية وتحديدًا يفرن وما جاورها وهم مهرة في الحفر العمودي الذي تفرضه التضاريس السهلية في جزيرة جربة، مثل جامع البنا بحومة ورسيفن وجامع الوطاء بحومة سدويكش⁽²⁾.

كما نجد مسجد القوجيل في الماي بجربة⁽³⁾ والقوجيل هو اليتيم باللسان البربري وقد اعترضنا عدد من المساجد تحت اسم القوجيل بالقصير بيفرن وغيرها كثير ومعنى ذلك أننا إزاء انتشار قطب ولائي مالكي من جبل نفوسة إلى جربة، أي أن التأثير لم يتوقف على المذهب الأباضي بل تجاوزه إلى المذهب المستوي الصوفي. بالإضافة إلى

(1) Mercier M. "Notes sur une architecture berbère Saharienne", Hespéris, T. VIII, Paris 1928, p. 416-417

الباروني (يوسف)، جربة في موكب التاريخ، تحقيق سعيد بن يوسف الباروني، جربة 1998، ص 100.

(2) المرباط (رياض)، مدونة مساجد جربة، تونس 2002، ص 582 و 587.

(3) المرباط (رياض)، نفسه، ص 278.

(1) ليفيتسكي (تدايوش)، نفسه، ص 52.

(2) المرباط (رياض)، مدونة مساجد جربة، تونس 2002، ص 470.

(3) المرباط (رياض)، نفسه، ص 125.

(4) المرباط (رياض)، نفسه، ص 208.

ذلك، تنتشر زخرفة الخطوط بتقنية الطبع في محراب جامع غريب الهواري بجربة بنفس الخصائص التي كانت عليها بجبل نفوسة⁽¹⁾.

لم تنتقل فقط الخصائص الفنية النفوسية في مجال العمارة إلى المناطق المجاورة، بل تنقلت المهارات الجبلية ممثلة في البنائين الذين نقلوا معهم خبرتهم يزودون بها التجمعات السكنية الأباضية وينشؤون معالم طبقا للنموذج النفوسي.

فقد كان نفاث بن نصر من جبل نفوسة ومن أهم المعارضين للإمام عبد الوهاب ولكنه كان بناء ماهرا نقل خبرته إلى قنطرة بقسطيلية ببلاد الجريد، حيث يذكر الباروني أن نفاث «كان بناء عظيما له معرفة بطرق البناء»⁽²⁾.

قام نفاث ببناء دار كبيرة لوالي قنطرة سعد بن وسيم النفوسي وكان هذا الأخير يذمه ويشتمه ليرده عن معارضته، فإذا خلا سعد بأصحابه قال لهم: «ليس جزاء من يبنني لي ويخدمني أن أشتمه في وجهه وإنما تخوّفت الفتنة على الناس. وبذلك فعلت ما فعلت وإنما جزاؤه الخبز واللحم»⁽³⁾.

كما نجد عائلة اشتهرت بالبناء في جبل دمر وهي عائلة «الكرارين» حيث قام زياد بن الكراين بتشييد بيت الصلاة بمسجد علولة بجبل دمر في منتصف القرن 6 هـ / القرن 12 م ويتميز هذا المسجد بثلاثة محاريب ولئن أثار هذا الأمر استغراب الباحثين فإن الغرابة تزول إذا ما

(1) المرابط (رياض)، مدونة مساجد جربة، تونس 2002، ص 91.

(2) الباروني (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، طبعة حجرية بالمكتبة الوطنية ع 14041 دد، ص 198.

(3) الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص 139.

علمنا أنها تقنية نفوسية بامتياز حيث يغلب على مساجد الجبل وجود ثلاث محاريب اثنان منهما أصغر حجما من المحراب المركزي⁽¹⁾.

أبرزت هذه الملاحظات خصوصية العمارة الدينية بجبل نفوسة كما أبرزت أواصر الترابط بين أجزاء الفضاء الأباضي وما لذلك من تأثيرات على المستوى الفني المعماري، فلئن غابت الكتب النظرية التي تؤسس للعمارة الدينية وتضع لها شروطها مثلما حدث مع القصور والمنشآت المائية لدى الفرستائي، فإن النفوسيين وساكنة الجبل عموما قد حملوا خبرتهم في مجال البناء والتشييد إلى أغلب المناطق المجاورة بجنوب افريقية، ما جعل التراث المحلي النفوسي معينا ينهل منه المهندسون في جربة ودمر وكذلك المزاب وصولا إلى بلاد السودان.

شكل عدد 3: تشابه العمارة بين مناطق جبل نفوسة وجربة:

منار مسجد بازيم بجربة

منار مسجد نانا زورغ بالقصير يفرن

مسجد كهفي «جامع الوطاء» بسدويكش جربة

مسجد عبد الحميد الجنائوني بقرية جنانون جادو

(1) الثابتي (علي)، العمارة بجبل دمر في العهدين الوسيط والحديث، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، أشرف د. محمد حسن، السنة الجامعية 2014-2015، ج 2 ص 597.

انظر: الزواري (محمد)، التعمير والعمران بجبل نفوسة في العصر الوسيط، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية 2015/2016.

الخاتمة

تبدو الصورة كما لو كانت ثابتة لمجتمع نفوسي يحاول العيش في واقع متدهور يتهدده الأعداء من كل حذب وصوب إلا أن الحقيقة هي أن هذا المجتمع حيوي ومتحرك وتشقه عديد التحولات العميقة ومن شأن هذه التحولات أن تزيد في صعوبة الموضوع وتعقيداته، فعلى المستوى الاجتماعي يبدو المجتمع النفوسي متعدد العناصر وغير مستقر التركيبية، كما أنه دخل طور التحول نحو الاستقرار وما رافق ذلك من تحولات اقتصادية باتباع الزراعة المستقرة وخاصة الغراسات والملكيات الخاصة وظهور الحرف وتجارة التفصيل وظهور مختصين مهنيين وعلاقات اقتصادية جديدة خاصة بين الإقطاعي والمزارع والراعي والجنان وبين الحرفي والصانع كما أدت علاقات الصحة والحلف بين البدوي والجبالي إلى توفير الأمن مقابل الغذاء وبعض الخدمات الأخرى وهو ما ساهم في استقرار الأوضاع الأمنية وازدهار الحياة الاقتصادية بالتكامل مع التجارة الصحراوية، ما جعل المجال الجبلي جنوب افريقية يعرف حالة من تحقيق الكفاية الاقتصادية وجعل المجتمع النفوسي يعيش لقرون على هامش الدول المتعاقبة محققا شبه استقلال اقتصادي.

تميز المجتمع النفوسي بالتنوع حيث يوجد في جبل نفوسة إلى جانب البربر الأباضيين النصارى واليهود والروم وكذلك العبيد وكان العرب في بداية العصر الوسيط مجاورين لهم ثم منذ القرن 5 هـ / القرن 11 م اشتد الصراع بين نمطين من العيش، المدنية والبداءة لكن سرعان ما تأثر كل واحد بالآخر فقد غادرت فصائل بربرية جبل نفوسة

في اتجاهات متعددة بينما استقر بالجبل وتبنى نمط العيش الجبلي عدد من الفصائل البدوية خاصة العربية منها.

مرّ الاقتصاد النفوسي بثلاث مراحل تبعا لتطور الوضع السياسي فقد عرف في الفترة الأولى توفر ظروف النجاح خاصة منها تحقيق الأمن الاجتماعي واستقرار الوضع السياسي وتشكل أرستقراطية نفوسية راكمت ثروة من الفلاحة التقليدية الرعوية، ثم عرف الاقتصاد النفوسي في المرحلة الثانية ازدهارا كبيرا بفضل ذكاء الرجال وحيوية النساء، فقد تنوعت مصادر الدخل مثل الغراسات في المجال الجبلي والحبوب في السهل والظاهر وتربية الماشية الشاسعة خاصة في الظاهر والصحراء وازدهرت الحرف والتجارة القوافلية واستفاد الجبل كثيرا من أهمية موقعه الرابط بين الساحل المتوسطي والصحراء، بينما تراجع الاقتصاد شبه المستقر لانتشر الخفارة وعقود الصحبة بين البدور وساكنة الجبل بعد هزيمة مانو وسقوط الدولة الرستمية.

لعب الجبل دور منطقة الوصل بين الساحل والصحراء، بين النشاط المستقر والنشاط المرتحل، في حين مثل نشاطا اقتصاديا في طور الانتقال نحو الاستقرار وما رافق ذلك من تحولات في طبيعة علاقات الانتاج، وهو ما حقق للجبل ازدهارا كبيرا، إلا أن أزمة اقتصادية خيمت على جبل نفوسة بالتزامن مع هزيمة نفوسة في معركة مانوا وانهايار الرافعة السياسية للأباضية، وهو ما دفع نحو تحوّل الاقتصاد النفوسي من شبه مستقر إلى شبه مرتحل وفرض علاقات اقتصادية جديدة قائمة على الحلف التي يبدو أنها أقدم من قدوم الهلاليين إلى حيز طرابلس، ورغم القراءة الايديولوجية التي رافقت علاقات الصحبة، إلا أن هذه العلاقات نجحت في تحقيق تكامل بين الاقتصاد الجبلي

والصحراوي، وهو ما منح جبل نفوسة استقلالية جعلته بمنأى عن سيطرة السلط المتعاقبة على افريقية.

مرّ المجتمع النفوسي في تاريخه الطويل بثلاث مراحل أساسية مثلت المرحلة الأولى تشكل المجتمع عبر الاتحاد القبلي مع بداية القرن 2هـ / القرن 8م، وقد تميز هذا الاتحاد بالتنوع القبلي سيطرت عليه قبيلة نفوسة منذ منتصف هذا القرن، ثم تدعّمت مكانتها بدورها الرئيس في قيام الإمارة الرستمية وقادت المجتمع النفوسي نحو العنفوان والاكتمال وهي المرحلة الثانية من مسيرة هذا المجتمع، حيث شهدت نفوسة سيطرة على المجال الجبلي ووصل نفوذها إلى مناطق قريبة في طرابلس وجربة وبقاع قصية في قسطنطينية وخاصة في تاهرت، فكانت الإمارة الرستمية مجال سيطرة وتنقل وهجرة لقبيلة نفوسة المقاتلة وتطورها نحو الاستقرار، وقد ساعد على ذلك اجتماع قبيلة نفوسة على المذهب الأباضي خلافا لبقية القبائل البربرية، بينما تمثل المرحلة الثالثة في تراجع المجتمع النفوسي بعد انكسار شوكة نفوسة في معركة مانوا الحاسمة وانهايار المشروع السياسي الأباضي بسقوط الدولة الرستمية واستحالة أحيائه فيما بعد، وما رافق ذلك من تغير في تركيبته العرقية فأصبح يضم عناصر بدوية عربية وبربرية بدأت تتوجه نحو الاستقرار بعد موجة بدو غزت جبل نفوسة وبدلت الأحوال فيه، فسادت علاقات الحراية بين نمطين من العيش هما البداوة والاستقرار ولكن أيضا بين القرى المتنافسة حول المكاسب والمنافع الاقتصادية. بدت التحولات تطرأ مبكرا على المجتمع النفوسي منذ نهاية القرن 3هـ / القرن 9م ولم يكن دور الأعراب الهلاليين والسليميين إلا مفاومة البداوة وفي المقابل أحدث الوافدون الجدد توازنات جديدة بين الرحل والجبالية.

تميّز المجتمع النفوسي في تاريخه الطويل بالتنوع والانفتاح، فقد استفاد من موقعه بين المشرق والمغرب وبين الساحل والصحراء وكذلك بين البداوة والمدنية حظيت فيه المرأة بمكانة مرموقة في مجتمع تقليدي.

يعدّ المجتمع النفوسي نموذج لتواشج ثقافتين، ثقافة محلية بربرية وثنية مسيحية وثقافة وافدة عربية إسلامية. ساعدت بنية القبيلة النفوسية على تبني الثقافة العربية الإسلامية، حيث كان تحولها من الطور القبلي إلى مرحلة الشعب وبناء الدولة مرادف للتخلي عن معتقدات قبلية تبدو «متخلفة» عن السياق الحضاري وتبني رؤية جديدة أكثر معاصرة و«تقدمية»، إلا أن التخلص من الرواسب القبلية يلزمه وقت طويل من التفاعل الحر، ونعتقد أن تواصل معتقدات قبلية بعد زمن طويل ما كانت لتكون لولا تدخل عوامل خارجية عرقلت التفاعل الحر (الجدل الثقافي) بين الثقافة الأصلية والثقافة الجديدة.

لقد بدا معتنقو المذهب الأباضي كسائر أهل المغرب متشبثين بحرفية النصوص الدينية المؤسسة أي القرآن والسنة دون كبير اجتهاد وما ذلك إلا تأثر بالفكر الظاهري الحزمي الذي برز في الأندلس وتشربه فقيه المذهب الأباضي أبو يعقوب الوردجاني وأخرجه في كتابيه الدليل والبرهان والعدل والإنصاف.

بالتوازي مع تطور المجتمع النفوسي، عرف المذهب الأباضي تطوراً مشابهاً، من النشأة إلى الإكتمال إلى التراجع، فقد عرف مسالك الدين الأربعة وهي تباعا الدفاع والظهور ثم الشراة والكتمان وبرز المذهب المالكي المنافس.

كما لم يمنع النظام الاجتماعي الأباضي الصارم من انفتاح المجتمع النفوسي على بقية الأعراق والديانات والثقافات بل استفاد منها خصوصاً زمن الازدهار في القرن 3هـ / القرن 9م وهو ما منح الجبل ثراء حضارياً كبيراً علمياً وفنياً.

وإجمالاً فقد تميز المجتمع النفوسي بالخصائص التالية:

- معاش أهل الجبل مرتبط بذكاء الرجال وحيوية النساء.
- الانتماء المذهبي: من قيود الانضباط العقدي إلى تحرير الروح الجبالية.
- اللسان البربري بين تأصيل الثقافة وتسهيل الاندماج الحضاري.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربية:

- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستمين، تحقيق محمد ناصر و ابراهيم بحاز، الجزائر 1986.
- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص، ط1، بيروت 1987.
- ابن حوقل، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1992.
- ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس 1993.
- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت 2000.
- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، ط3، بيروت 1983.
- أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط عمان 2009.
- أبو العباس أحمد الفرساطي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكير بن محمد بالشيخ بالحاج والدكتور محمد صالح ناصر، ط المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1997.
- الإدريسي (محمد)، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، باريس 1983.

- الباروني النفوسي (عبد الله)، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإياضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1986.
- البرادي (أبو القاسم بن إبراهيم)، الجواهر المنتقاة، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، دار الحكمة، لندن 2014.
- البغطوري (مقرن)، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عبّاد الشقروني، ط1، تاوالت، المغرب 2009.
- البغطوري (مقرن)، روايات الأشياخ، أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري، تحقيق عمر بن لقمان أبو عصبانة، مكتبة خزائن الآثار، عمان 2017.
- البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992.
- التجاني (أبو عبد الله)، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس 2005.
- الدرجيني (أبو العباس أحمد)، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة الجزائر 1974.
- الشماخي (إبراهيم سليمان)، القصور والطرق لمن يريد جبل نفوسة من طرابلس، ترجمة أحمد مسعود الفساطوي، دراسة امحمد سعيد البوجديدي، محمد عبد النبي دقالي، محمد علي ابو شارب، ليبيا 2005.

- الشماخي (أبو العباس أحمد)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، لبنان، 2009.
- الشماخي (أبو ساكن عامر)، كتاب الإيضاح، تحرير ودراسة محمد كمال الدين إمام، ط1، سلطنة عمان 2011.
- الشهرستاني، الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، ط2، بيروت 1992.
- الفرستائي (أبو العباس)، كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بالحاج و محمد صالح ناصر، ط2، الجزائر 1997.
- كاتب مجهول، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958.
- النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.
- الورجلاني (أبو زكرياء)، كتاب سير الأئمة و أخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982.
- الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983.
- الوسياني (أبو الربيع)، سير الوسياني، تحقيق عمر بو عصبانة، سلطنة عمان سنة 2009.
- ومادي (محمد)، أماوال معجم أمازيغي ليبي، نسخة الكترونية.

- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، كتاب البلدان، ليدن، 1890.
- المراجع العربية والمترجمة للعربية:
- أركون (محمد)، «مفهوم السيادة العليا في الفكر الإسلامي»، ترجمة هاشم صالح، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 39، بيروت 1986
- أركون (محمد)، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1998.
- أركون (محمد)، مفهوم السلطة في الفكر الإسلامي (لا حكم إلا الله)، ترجمة محمد عبد النبي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، عدد 72 - 73، بيروت، 1990.
- باتسييفا (سفيتلانا)، العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمه عن اللغة الروسية رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1980.
- برانشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، بيروت 1988.
- بكير (إبراهيم بحاز)، الدولة الرستمية 160 هـ إلى 276 هـ. دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مكتبة الضامري، سلطنة عمان 2014.
- بن حسن (محمد)، القبائل و الأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس 1986.

- بن حسن (محمد)، القبائل و الرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس 1986.
- بن عامر (توفيق)، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، تونس 1996.
- بوتشيش (إبراهيم القادري)، المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع -الذهنيات-الأولياء، دار الطليعة، بيروت 1993.
- تغلات (زهير)، الفكر السياسي الإباضي، الدار التونسية للكتاب، تونس 2014.
- تيري (جاك)، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ليبيا 2004.
- الثابتي (علي)، العمارة بجبل دمر في العهدين الوسيط والحديث، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، تحت إشراف د. محمد حسن، تونس 2015-2016.
- الجابري (محمد عابد)، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 10 بيروت 2009.
- الجابري (محمد عابد)، فكر ابن خلدون: العصبية و الدولة، الدار البيضاء، 1982.
- الجعيري (فرحات)، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، ط 1، المطبعة العصرية، تونس 1975.
- حسن (محمد)، «حول إحدى القبائل البربرية نفوسة»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 10، سنة 1984.

- حسين (أحمد إلياس)، دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان.
- رايلي (ك. فين)، الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع حجازي ومراجعة فؤاد زكري، ط1، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1985.
- روبيناشي (روبيرتو)، العزابة حلقة الشيخ محمد بن بكر، ترجمة لميس الشجني وتقديم محمد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سلسلة أبحاث تاريخية 6، 2005.
- روني باسي، أبحاث في دين الأمازيغ، ترجمة حمو بوشخار، المغرب 2012.
- الزواري (محمد)، التعمير والعمران بجبل نفوسة في العصر الوسيط، أطروحة الدكتوراه (مرقونة)، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس السنة الجامعية 2015-2016.
- الزواري (محمد)، القصور والقلاع بالجنوب الشرقي التونسي في العصر الوسيط، شهادة الدراسات المعمقة (مرقونة)، كلية الآداب منوبة 2004.
- سالم (السيد عبد العزيز)، كتاب المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت 1981.
- شرف (عبد العزيز طريح)، جغرافية ليبيا، دار الجامعات المصرية، القاهرة 1971.

- شرف الدين (لمياء محمد سالم)، بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، بنغازي ليبيا 1999.
- الشرقاوي، التاريخ السياسي والحضاري (في القرنين الثاني والثالث الهجريين)، سلسلة الأبحاث التاريخية 16 -، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية 2011.
- الطالب (محمد)، الدولة الأغلبية، تعريب ومراجعة المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995.
- عبد الحميد (سعد زغلول)، «هامش على مصادر تاريخ الأباضية في المغرب: دراسة لكتاب السير» أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، سلسلة الدراسات التاريخية، تونس 1979.
- عبد الرازق (محمود اسماعيل)، «التفسير الاجتماعي لثورة المغاربة في القرن الثاني الهجري»، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، الجزء الأول، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1979.
- عبد الرازق (محمود اسماعيل)، الخوارخ في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط2، المغرب 1985.
- عبدولي (حافظ)، إقليم طرابلس الغرب في العصر الوسيط: دراسة في التعمير والآثار، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ فوزي محفوظ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، السنة الجامعية 2010/2011.

المراجع باللغة الفرنسية:

- Despois (J), » L'habitation dans le Djebel Nefousa », in, **R.T**, 1934.
- Despois (J), »Les déplacements de villages dans le djebel Nefousa«, **R.T.** nouvelle série n° 13-14, Tunis 1933.
- Despois (J), « Les déplacements des villages dans le Djebel Néfousa », **R. T.** 1^{er} et 2eme trimestres 1933.
- Despois (J), »Vocabulaire berbère ancien (Dialecte du djebel Nefoussa)«, **R.T.** n°28 Tunis 1900.
- Despois (J), « Les Greniers fortifiés de l'Afrique du Nord » in, **C.T**, 1953.
- Despois (J), » l'habitation dans le djebel nefoussa », **R.T**, n°, 18-19 ,1934.
- Despois (J), « Greniers collectifs de l'Afrique du Nord », in, **C.T**, 1953, T.I.
- Despois (J), **Le Djebel Nefousa** (Tripolitaine), Etude géographique, LAROSE-EDITEURS, Paris 1935.
- Goguyer (A), »Le servage dans le sahara tunisien«, **R.T.** n°5, Tunis 1895.
- Gsell (S), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, T. V, Paris, 1930.
- Lewicki(T) ; « Tasmijat Gabal Nafousa wa qurahum » , **ETUDES IBADITES NORD-AFRICAINES**, Partie I, **WARSAWA** 1955.

- كامب (غابرييل)، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014.
- ليفتسكي (تدايوش)، دراسات شمال إفريقية، الجزء الأول، ترجمة أحمد بومزقو وموحد ومادي، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية 2005.
- مزهودي (مسعود)، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21 - 442 هـ) (642 - 1052 م)، مؤسسة تاوالت الثقافية 2003.
- المعتزلة، الموسوعة الإسلامية العامة، اشراف، محمود حمدي زقزوق، القاهرة 2003.
- معمر (علي يحي)، الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة، الأباضية في تونس، دار الثقافة بيروت 1966.
- مفتاح (صالح معيوف)، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من نصف القرن الثاني هجري إلى أواخر القرن الثالث هجري)، مؤسسة تاوالت الثقافية 2006.
- المنصوري (المبروك)، جدل الدين الإسلامي والعمران المغربي، الدار المتوسطة للنشر، تونس-بيروت 2010.
- الميار (عبد الحفيظ فضيل)، الحضارة الفينيقية في ليبيا، بنغازي ليبيا 2001.
- هاشم (مهدي طالب)، الحركة الإباضية في المشرق العربي، ط3، لندن 2009.

الفهرس

7	تقديم
11	مقدمة

الفصل الأول

تشابك النسيج المجتمعي

30	المبحث الأول : حركية المجتمع النفوسي
30	1 - نفوسة من القبيلة إلى المجتمع
43	2 / الهجرات النفوسية من الجبل وإليه
55	المبحث الثاني : حكمة الشيوخ وصلاح النساء
55	1 - شيوخ التدبير وأتباع التسيير
70	2 - نفوسة القبيلة المقاتلة
81	3 - مكانة المرأة النفوسية

الفصل الثاني

تنوع الاقتصاد النفوسي وتحولاته

المبحث الأول : القطيع والحقل ، تكامل وتنافس..100

1 - القطيع والحصان مكاسب الغنم ومكسب الغنيمة...100

أ) القطيع.....100

ب) الحصان.....104

2 - الحقل وبركة الزراعة.....107

أ) الغراسات.....110

ب) الزراعات.....121

3 - تحولات الاقتصاد النفوسي.....128

أ) القطيع والزيتون صراع بين نمطي عيش.....128

ب) من علاقات الإنتاج العبودية إلى المشاركة أو

«نظام المشيطن».....130

المبحث الثاني : التجارة والخفارة.....135

1 - السوق والتجارة.....135

2 - من التجارة الى الخفارة.....146

الفصل الثالث

تواشج البنى الثقافية

المبحث الأول : صرامة نظام العزّابة وتحرّر روح

الجبالية.....155

1 - مجالس الذكر لتأطير المجتمع ودعاء الصلحاء

لتعويض حكمة العلماء.....156

2 - صرامة نظام العزّابة.....159

3 - تحرر روح الجبالية.....165

المبحث الثاني :جدلية الدين واللسان.....177

1 - بربرية اللسان وعروبة الدين.....177

2 - الإشعاع الثقافي لجبل نفوسة.....187

أ) الإشعاع الديني.....	187
ب) الإشعاع الفني.....	193
خاتمة	199
المصادر والمراجع	205
الفهرس	215

محمد الزواري

المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط

جدلية المحلي والوافد



تقديم الأستاذ الدكتور محمد حسن



محمد الزواري

المجتمع النفوسي خلال العصر الوسيط جدلية المحلي والوافد

محمد الزواري باحث في الآثار والتاريخ والتراث متخصص في الانثراكولوجيا الخاصة بجنوب شرق أفريقية في العصر الوسيط، متحصل على الدكتوراه في الآثار والتاريخ الإسلامي سنة 2017 تحت عنوان: التعمير وال عمران بجبل نفوسة خلال العصر الوسيط، وشهادة الدراسات المعمقة تحت عنوان: القصور والقلاع بجبل دمر خلال العصر الوسيط. يُدرّس بجامعة قابس منذ 2017.



«برز جيل جديد من الباحثين المغاربة، من تونس وليبيا والجزائر خصوصا، الذين أولوا عناية بالمجالات الإباضية وخصوصا بجبل نفوسة وعقدت الندوات العديدة حول تاريخ الإباضية في أماكن مختلفة من العالم. وإذا لا يسمح المجال لمزيد التفصيل، فإن الأستاذ محمد الزواري المنتمي إلى هذا الجيل، تميّز بالاهتمام في مرحلة أولى بآثار جبل نفوسة، فأنجز أطروحة دكتوراه حول هذا الموضوع، ثم التفت إلى جوانب أخرى من تاريخه الاجتماعي وهو ما يمثل محتوى هذا الكتاب، مسهما بذلك في مدّ جسور التاريخ والجغرافيا بين البلدين الشقيقين: تونس وليبيا.

أتبع مقارنة حديثة في دراسة المجتمعات، فدرس تحولات نفوسة من القبيلة إلى الشعب ومن نمط العيش المرتحل إلى المستقر واعتنى بالتحولات الاقتصادية، ورصد الانتقال من نظام الإنتاج العبودي إلى ما يشبه نظام الإنتاج الإقطاعي. ورغم تشعب هذه المواضيع ودقتها، لم يهمل خصائص الثقافة التي طبعت حياة النفوسيين وأثرت تأثيرا عميقا في وجدانهم، نظرا إلى تنوع روافد هذه الثقافة التي تنهل من الرافد البربري المحلي، الوثني والمسيحي وكذلك من الرافد العربي الإسلامي، الوافد على بلاد المغرب منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي».

أ.د. محمد حسن

أستاذ متميز بالجامعة التونسية.



الطبعة 25 دمت

Dépôt légal : XX37596VCX

منشورات